أحمد الخميسي

قطعة ليل

قصص قصيرة

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٤

قطعة ليل

قطعة ليل
(قصص قصيرة)

أحمد الخميسي

الطبعة الأولى، ٢٠٠٤

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
merit56@hotmail.com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام : **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٨٩٤

الترقيم الدولى: **977-351-121-9**

إلى المستقبل الذي لا يأتي أبدًا.

أحمد الخميسي

وقتٌ آخر

مــع الــدوران المنتظم لأضلاع المروحة المدلاة من السقف كــان الهواء يرف فوق الجالسين إلى طاولة الطعام بفسحة شقة مــن الطــابق الثالث بالمنزل ٢٢ شارع حبشي بحدائق القبة ، عندما .. جاش صدر ياسر وجدي بانفعال شديد وأطبق شفتيه بصــمت علــى قلبه، ثم شملته رعدة على الكرسي ارتجف لها جسمه كله بشدة، مرة، ومرة ثانية . وفتح الجميع عيونهم إلى آخرها منتفضين من مقاعدهم يتابعون بنظرات الدهشة جسمه المضطرب وهو يهوي متخبطا إلي الأرض .

تطلعــت أم نوال إليه بنظرة تجمدت من ذعر أبكم ، ولحقها يحيى مبهوتا بعينين بيضاوين من الذهول .

لكــن القصــة بدأت قبل ذلك حينما كان ياسر وجدي في طريقه لبلدته كفر عبده منذ أسبوعين فتفتحت فيه دهشة تسربت

إلـــيه طويـــلا ، لأن البلدة كانت تقطر بسمرة المغيب ، ذات السـمرة متى زارها صباحا أو ظهرا أو ليلا – كأنها لم تعد تعـرف وقـتا آخـر سـوى لحظة المغيب ، ولأنه وهو يقطع الطريق بمحاذاة الترعة صوب الدار كان يلتقي بفوزي كل مرة بقامته الطويلة المسحوبة ومشيته المسالمة ومن ورائه جاموسة تـرفع نحوه عينين واسعتين معذبتين بصبر راضخ رقيق ، وما يلبـث بعد ذلك مباشرة أن يصادف الشيخ حمدي مهرولا كل مـرة فـي الاتجاه الآخر نحو الجميزة الضخمة التي تحتضن المسـجد ، فيلقـي الشيخ السلام دون أن يتطلع إليه . في تلك المـرة ، كمـا في المرات السابقة ، لمح ياسر نعمات – وهو يـدور يمينا مع الطريق الضيق المترب – منحنية تضخ الماء كعادتهـا من طلمبة الحوش في نفس الدورق النحاسي . ترفع رأسـها لحظة ، تبتسم له كل مرة ذات البسمة الملغزة المفعمة بالدفء ، وتنحني ثانية على الطلمبة .

سيمشـي قليلا بعد ذلك فلا يصادف أحدا إلي أن يهف عليه نفـس المـزيج الأسـطوري من مخاض الطين وأسرار اللقاح الهائمـة فـي الجو، فيواصل سيره وحده بين الأرض والسماء

حـــتى ليشـــعر كأنه ظل لحقيقة أخرى سرعان ما يزول . ينبح كلـــب بعيدا ، مرة ، وأخرى ، ثم يرقد ضجرا تحت شجرة في ســـكون المغربية . في هذه اللحظة سيجد نفسه كما في المرات السابقة واقفا أمام الباب الخشبي القديم لدارهم ويتريث ثوان قبل أن يدلف :

الآن ســوف يســتقبله والده الحاج عفيفي كما لاقاه مرات متتالـــية مـــن قـــبل دون أن يبدل شيئا من جلسته أو حديثه أو إشارات يديه في الهواء ، متربعا بنفس الجلباب على نفس الكنبة تـــتوالى كلماتـــه بنفس التتابع عن الشوطة التي التهمت نصف فـــراخ المزرعة . وحين ينتهي من شكواه سيلتفت لعمق الدار ويصـــيح متعجلاً العشاء بنفس التعبير الملول . حينئذ سينهض هو لينصرف مستأذنا مستغربا كل ذلك .

هـــذه المرة غابت عيناه في الباب الخشبي العتيق ثم استدار عـــائدا على نفس الطريق إلي مخارج البلدة ، ومنها إلي موقف المـــيكروباص على سكة السفر ، وقد قرر ألا يرجع للبلدة ثانية قـــبل أن يفض سر ما يتراءى له من صور تتناسل وتعيد خلق نفســـها . اســـتغرقه ذلك الخاطر في فترات الراحة التي تتخلل

عملـــه بـــإدارة المبعوثين ، وأ   جلسته أمام التلفزيون بشقته وخـــلال أحاديثه مع زوجته نوال . وانتبهت نوال وهي تعقص شعرها أمام مرآة الحمام إلي أنه أمسى على غير عادته. تأملته باستغراب دون أن تعقب بشيء بينما كان ينزلق بجسمه إلي ماء الحمام الدافئ منصرفا إلي نفسه لعله يجد تفسيرا للقرية الناعسة التي تكرر نفسها بلا نهاية .

بعـــد أيام معدودة أفاق ياسر وهو في طريقه لعمله بمجمع الـــتحرير إلـــي أن وجوه ركاب الأتوبيس " ٤٤" لم تعد تتبدل صـــباحا بعد الآخر على مدى أسبوع كامل . لاحظ ذلك بتشكك أول الأمـــر، وخـــال أن شيئا قد اختلط عليه ، فحد من ذاكرته يحفـــظ ملامح الوجوه من حوله كل مرة إلي أن ارتسمت أمامه وهو مغمض العينين فتيقن أنها ذات الوجوه والعيون التي تعاود الظهور في نفس الأتوبيس اليوم التالي . ثم أعيته عند التفكير تفاصـــيل أكثر دقة كتلك المرأة التي تزاحمه كل يوم بين نفس المقعدين بلحمها المكتنز وفستانها الأخضر الفاقع .

ربمـــا كانـــت الصـــدفة وحدها وراء كل ذلك . لكن أكانت مصـــادفة أيضـــا أن يـــبدأ عمله كل يوم باستدعاء المدير له ،

ودخولـه إلي مكتب المدير فإذا بالرجل منتفخ في مقعده قابض علـى سماعة التليفون جازما بأن : " إدارتنا – أقسم بالله – في أمـس الحاجة لخبرة رجال كهذا الرجل " . كم مرة تتابعت تلك الكلمـات بنصها على أذنيه ما أن تبلغ قدماه منتصف السجادة؟ جرب ذات يوم أن يتلكأ عند استدعاء المدير له ، فتمشي ببطء في ردهات الطوابق التي عجت بضوضاء أصحاب المصالح ، ثـم دلـف إلى قسم الشئون المالية ، واتصل بنوال من مكتب عـزت ، وعـرج علـى دورة المياه ، وتوقف فيها دقائق أمام المـرآة ، ثم قطع مسافة إلي فرع مكتب البريد بالطابق الرابع وظـل به برهة ليكسب وقتا يغير به الموعد المتكرر ، وصعد بعد كل ذلك بتصميم إلي غرفة المدير ، لكن نفس العبارة بنفس النـبرة دوت فـي أذنيه ما أن وطأت قدماه منتصف السجادة القديمة المنسولة .

وحدها كانت وجوه المترددين على المكاتب تتغير ، وتتجدد معهـا أمـام عينـيه الأوراق والملفات بأسماء المبعوثين لمنح دراسـية في الخارج : ملف المطلوب وضعهم تحت الإشراف العلمـي ، وملـف الذيـن أنهـوا دراستهم ، وملف مستحقات

الطـــلاب. كـــان يقـــبض علـــى لحظات التغير تلك بكل قوته ويستعيدها إشارة إلي بقاء العقل . لكنه كان إذا نهض من وراء مكتـــبه ليدخـــن سيجارة ظهراً ، نهض معه على الفور زميله مصــــطفى سلامة وهو يغمز بعينه اليمنى مبتسما ، فينسلان من الغرفة واحدا وراء الآخر ويهبطان متجاورين إلي ممر الطابق الســـادس ويستندان بظهريهما إلي الجدار القريب من البوفيه . يقـــدم مصطفى سيجارة إليه شاكيا : " لو الواحد خبط رأسه في الحـــائط لكان ذلك شوية على ما يحدث. الهانم عارفة ظروفي كلها ، ولما شجعتني بعينيها وضحكاتها تقدمت إلي أهلها أطلب يدها . أتصدق أنهم أفحموني بالرفض القاطع ! أيعقل هذا ؟! ".

أسبوع كامل ، أم شهر ، ومصطفى يردد نفس الكلام على نفـــس البسطة بنفس البدلة الرمادية . لم يعد يحتمل فصاح فيه ساخطا بنظرة حانقة : " ما هذا ؟ أما من شيء آخر تقوله؟ " . تطلـــع مصـــطفى إليه متراجعا بارتباك وتلعثمَ : " شيء آخر ؟ شـــيء من أي نوع ؟ أنت تعرف المشكلة ، وتعلم أن الكثيرات يرفضـــن الـــزواج لمجرد أن والدتي تعيش معي بنفس الشقة . فهل ألقي بها إلي الشارع في هذه السن ؟! ". احتد عليه مستاء

وقد شاع في وجهه تكذيب مرير : " قلت لي كل ذلك وكررته بحذافـيره من قبل أكثر من مرة". تركه وعاد إلي مكتبه مختنقا بخاطر كئيب:" لابد من طلب إجازة مرضية " .

تردد في طلب الإجازة ، ثم حسم أمره حين تذكر أنه عند رجوعه إلي البيت كان كل يوم يرتطم بقدمين ثابتتين في حذاء كاوتشـوك أبـيض لصبي لا يبدل موقعه قرب مدخل العمارة بوجـه شارد في هواء الشارع . لم يكن يدري من أي بيت أو أسـرة في الحي نجم له هذا الطارئ الشيطاني بوجهه الشارد . وتضاعف بين جوانحه إحساس يائس بأن وجوده أمسى وهو في السـابعة والثلاثين دوران لا ينتهي في حلقة مفرغة. رأى نفسه وهـو يكتب طلب الإجازة ، ورأى نفسه وهو يوقعه ، ثم شاهد كـيف أنه مشى إلي غرفة المدير في غيابه ووضع الطلب على سطح مكتبه .

ودعـه زمـلاؤه بحـرارة وهم يشدون على يده متمنين له سـرعة الشـفاء ، ورافقـه عزت ومصطفى إلي باب المصعد وهـبطا معـه حـتى باب مجمع التحرير وهما يكرران على مسمعه: بسيطة بإذن الله .

لازم شقته في الطابق الثالث من المنزل ٢٢ بشارع حبشي في حدائق القبة. ومر عليه يومان في بيته وهو راقد يتقلب في سريره أو ينظر إلي السقف ، ثم ينعس قليلا دون أن يكلم أحدا. لم يأكل شيئا ولا حلق ذقنه . قالت له نوال : " ليتك ترى وجهك في المرآة . أنت تضمر من لحظة لأخرى أمام عيني فاعرض نفسـك علـى طبيب " . هل يصدق الأطباء ويكذب عقله الذي يعي وعينيه اللتين تريان ؟ وهل من دواء يطرد ما تثيره أحداث الأيام الأخيرة من شعور غريب بأنه يعيش حياة بالية من زمن سابق لرجل آخر استنفدها ثم خلعها لأول عابر طريق؟

مسـاء اليوم الثالث أصرت نوال على أن تشده إلي الحمام وهي تقول متفائلة : " أنا متأكدة أنك ستغدو كالحصان إذا قمت واستحممت وأكلت لقمة ونفضت عنك هذه الحالة . قم يا جدع". احتواها بين ذراعيه في الليل لكن بعنف غير مسبوق كأنما تاق إلـى إحراق نفسه فيها ، وعندما ذوبه اللهب شدها إليه فارتدت علـى ظهرها فوق السرير وهي تلهث : " ياسر .. حبيبي " ، فجذبهـا ثانية بقوة ، فارتدت من جديد بنفس النبرة : "ياسر .. حبيبـي" . كـف عـنها ، وغشت خياشيمه رائحة نفس العرق

الســـاخن التـــي فغمته مرارا من قبل. رفع رأسه وفرد جذعه معــتمدا علـــى ركبتيه المغروستين في السرير ، ومكث عارياً فوقهـــا بيـــن ظلال الغرفة المعتمة يسأل نفسه إن كان ما يدور حوله حقيقة أم موجا من الصور يظنها حقيقة ؟

وقــف ساهما ببيجامته في المطبخ أمام إبريق الشاي الذي يصـــفر بخاره ، كان ينظر إلي الإبريق ولا يبصره حين فوجئ بنوال وقدعادت من شغلها دون أن يشعر بها تحملق فيه بذهول قائلـــة : " ألا تقــل لي ما بك ؟ أم أنك لا تحس بنفسك ؟ دعنا نذهب إلي طبيب ربما تكون حالة نفسية ؟ " . تطلع إليها ببصر زائـــغ ثم أشاح بيده أن لا . أي طبيب يجد علة الشعور الذي يتخلله بأنه يذوي وحده مئات المرات في فضاء عريض أصم خال من كل شيء ؟

استفسر منها : " كيف حال الولد ؟ هل بدأ ينتظم في دراسة اللغة الإنجليزية ؟" تفرست فيه بغضب ثم غادرت المطبخ وهو يمشي خلفها إلى الشرفة . هناك غمغمت وهي تجمع بين يديها مـــن الشـــمس طرفـــي مـــلاءة بيضاء : " كم أخشى عليه من الرسوب هذا العام " .

عصـــر الـــيوم التالـــي قال لها وهو راقد في فراشه بغرفة النوم: " دعيني أرى الولد الآن " . دخل عليه عزيز ابنه بعوده الناشـــئ ، وجثا على ركبتيه عند حافة السرير وطوق خصره بذراعه اليمنى مطأطئا: " سلامتك يا بابا " . مر بيده على رأس الولـــد : " لا تقلـــق . فقـــط أريـــدك أن تلتفـــت لدراستك هذه الســـنة".عـــندما خرج الولد من الغرفة استفهم : "هل يشكو منه المدرســـون ؟ " . نهضت واقفة تقول له وهي تجمع بين يديها طرفي ملاءة بيضاء لتضعها في الخزانة : "كم أخشى عليه من الرســـوب هذا العام " . تأملها مخاطبا نفسه : " ترى أتقول ذلك الآن ؟ " .

وحزّ في نفسه أن نوال وهو بتلك الحالة كانت تقدم له ظهر كـــل يوم نفس صحن البامية وشوربة اللحم . قال لها : " أما مـــن طعـــام آخر يا نوال ؟ " هرولت إلى المطبخ وعادت إليه تحمل بين يديها طبق الملوخية بالأرانب الذي أكل منه من قبل فصـــاح بهـــا مستغربا : " هذا طعام بايت ! " . انصرفت . قام متجها إلى الصالة . رجعت إليه نوال بعد قليل وفرشت السفرة بأطـــباق الأرز والســـمك المشوى بينما أقبل عزيز ابنه بصحن

ســلطة خضراء ووضعه أمامه . حينئذ رأى ابن عمه وصديق عمـره يحـيى جالسا على المقعد المواجه له عند السفرة ، وقد فـاض لحمـه المتكـتل على الكرسي وضحكته المجلجلة تملأ شـدقيه . عن يمين يحيى جلس أبو نوال بملامحه التي تقطر طيـبة وهـو يهمـس بشيء لأم نوال التي دقت على صدرها مستنكرة : " لا أبدا . بعد الشر . لا تقل هذا " .

تطلـع إلـى مـن حولـه وما حوله ، واسترق النظر إلى الـتلفزيون: كانـت كيتي تميل بخصرها في فيلم قديم معروف لإسـماعيل يـس ، بينما يهز يحيى رأسه طربا وعيناه تلمعان بنشـوة وسرور. تعجب لكل ذلك وأحس أن شيئا خبطه على رأسـه : كل ذلك لم يقع اليوم ، بل كان منذ زمن بعيد .. بعيد. خاطـب نوال وهي تغترف الأرز من الحلة وتفرقه : " يا نوال .. ألـم نشاهد نفس الفيلم من قبل ؟ " . وفكر: " ويحيى أيضا ؟ والسـاعة الثانـية ظهرا ؟ والسمك المشوي ؟ والجو الحار ؟ ووالديـك ؟ وستطرق أختك إحسان باب الشقة الآن فتقومين ، وتفتحيـن لهـا فتدخل وتجلس ثم تشكو أول ما تتكلم من صهد الشارع ؟ " . لكن نوال لم تسمعه ، أو تظاهرت بذلك .

ساد الصمت لحظة ، وما لبث أن سمع دقاً على باب الشقة. قامـــت نـــوال من مقعدها لتفتح الباب ، وإذا بإحسان واقفة في فـــتحة الـــباب كتمـــثال لآلهة الحسن ، كل ما فيها مشع آسر ، زاخرة بحياة كظيمة طفرت كأنما أهاجها وثاق لحمها وعظمها، فتطاير شررها متألقا من فحم عينين سوداوين ضاحكتين ، لولا قـــرط علـــى شكل زهرة تأرجح في أذنيها ما قال أحد أنها من البشر الزائلين . دخلت وجلست تحت المروحة المدلاة من سقف الصالة وتنهدت قائلة : " يا إلهي ، الشارع نار ! " . كان موقنا أن يحـــيى ســـيرتد الآن .. الآن إلى الخلف بكتفيه العريضتين محدقـــا فـــي طبق السمك وقد تحلب ريقه للأكل ، وسيرفع يده بالشـــوكة إلى أعلى ، لكنه قبل أن ينقض على الطعام سيهلل مثنيا على مهارة نوال : " الله . ولا طعام الملوك ! " . وخطر لـــه ، مـــا أن ارتد يحيى بكتفيه أنه لا يستطيع أن يشكو ما به لأحد ، لأن أحدا لن يفهم ما به، وأن الأمل الأخير الضعيف أن يكون كل ذلك وعكة عابرة .

كـــان ينـــتظر أن تهتف إحسان بصوتها الرنان : " احتفل إبراهـــيم ونبـــيلة بسبوع ولي العهد " لكي تدنو منه نوال وتقف

بالقـــرب منه معتمدة بيدها اليسرى على حافة الكرسي وتمسح ظهره بيدها الأخرى في حنان .

ســـاد ســـكون تركزت فيه عيون الجميع عليه تنفث نحوه مودة صادقة يشوبها استفسار قلق ، بينما كانت كف نوال تمسح ظهره بمحبة وهي مستندة بيدها إلى حافة الكرسي .

أحس بعرقه ينضح فمد يده بمنديل إلى رقبته وجفف عرقه الذي جففه من قبل. تأمل صفحة وجه نوال بقسماته المستريحة وعينيها الصغيرتين الجميلتين وأنفها الدقيق . وقال لنفسه إنها لا تعــرف بعد أنهما سيرزقان بعد عامين ونصف العام بطفلتهما بشـــرى ، ولا تدري بعد أنها سيُغشى عليها من الفرح والإنهاك حيــن يـــزفون إليها الخبر : " بنت " ، إلا أن الموت سيخطف بشـــرى قبل أن تبلغ الخامسة ، وسيتذكرانها بعد سنوات أخرى طويلة في خضم الورد والسرور والأنوار المتألقة عند الاحتفال بخطوبـــة عزيـــز وهند بين حشد من الأصدقاء والأقارب من القاهـــرة وكفر عبده ، وفوزي واقف بقامته المسالمة في ركن يصـــفق بيديه مبتسما برقة ، حينئذ وحينما يكون الجميع واثقين أن بشـــرى قـــد نُسيت تماما ، ستقترب نوال منه وهي في عز

فرحـــتها بخطوبـــة ابـــنها ، فتشـــده من مقعده وتُنهضه وتقبله وتراقصـــه ، وساعتها سيلوح وجه الطفلة غائما من عالم مفقود ويشـــق فـــتور الظلمة إلى العقل والقلب ، ثم يختفي . سيلوح وجهها لحظة كالشهاب لسبب ، اللحظة التي تشتبك عيناه بعيني نـــوال أثـــناء الرقصة . أما هو فسيخطر له وهو مغمور بفرح الآخريـــن والضـــحك، أنه سبق أن رأى كل ذلك في زمن ما ، طواه النسيان دون أن يدري متى أو أين .

كـــان الهـــواء يرف من دوران أضلاع المروحة وهي تهس بحركـــتها الثابتة في جو الفسحة فوق الجالسين إلى السفرة وقد توتـــرت كـــل قـــواه ليتذكر زمنا كانت الوقائع فيه تشد بعضها الـــبعض إلى الأمام .. دون جدوى . جاش صدره بانفعال شديد وأطـــبق شفتيه بصمت على قلبه محدثا نفسه : " لم يبق أمامى سوى انتظار الأحداث التي انقضت ، ومباهج الماضي أفرح بها مستقبلاً " . حينئذ شملته تلك الرعدة على مقعده ، فارتجف لها جسمه كله بشدة ، مرة ، ومرة ثانية . وفتح الجميع عيونهم إلى آخرها منتفضين من مقاعدهم يتابعون بنظرات الدهشة جسمه المضـــطرب وهو يهوي إلى الأرض متخبطا فوقها . وساعتها

وقـــع ما لم يكن لأحد أن يتخيل حدوثه : فقد أخذ ياسر وجدي يتلاشى شيئا فشيئا دون أن يترك وراءه أثرا: في البداية تبخرت ذراعاه وساقاه ، ثم بطنه وصدره فرأسه في عامود طويل من الدخان الرقيق . ولم يبق منه أمام الجميع سوى وشاح من رماد خفــيف علـــى البلاط سرعان ما تبدد مع أول هبة هواء من المـــروحة المـــدلاة من السقف . وتطلعت أم نوال لأعلى ناحية المروحة بنظرة تجمدت من ذعر أبكم .

لكن أحدا من الحاضرين لم ينبس في اليوم التالي بحرف عما شـــاهده في فسحة الشقة بحدائق القبة . ولم يفتح أحد فمه بكلمة حيـــن رأى ياســـر وجدي فيما بعد يواصل حياته كأن شيئا لم يحـــدث : يتجه إلى عمله ويعود بانتظام ، يستقبل الأقارب في الصالون ويتردد على كفر عبده .

◘ ◘ ◘

قطعة ليل

واصـــل الثلاثة سيرهم منهكين على طريق تعلو وتهبط وتلتوي كالثعبان .

الشـــمس فـــي قلـــب السماء كالحريق ، والقمر مثبت في الجهة الأخرى ، أبيض ، بلا ضوء .

في اليوم الأول كانوا جماعة كبيرة من نحو خمسين شخصا ، ثم تســاقط أفــرادها مـــن التعب واليأس واحداً بعد الآخر على جانبي الطـــريق . فـــي اليوم الثالث تهاوى رجل وأمه ، في اليوم الخامس حطـــت أســـرة بأطفالهـــا تحت شجرة ، ثم شابان عاشقان ، ثم ذلك الـــرجل الذي قال إنه لا يرى جدوى من هذا البحث ، ولكنه ينضم إلـــيهم من باب الفضول . وبعد ذلك لم تعد لدى أحد رغبة أو جهد لمراقبة الذين ينسلون بهدوء.

كـــان الثلاثة يجرجرون خطواتهم والغبار يتصاعد حول أقدامهم والعرق يسيل من أعناقهم إلى ظهورهم . من وقت لآخر كان أحدهم

يـتطلع إلـى جانبي الطريق المقفرة بحثا عن ظل شجرة ، أو إلى السـماء ربما تعبر سحابة مثقلة بالماء ، أو يرهف السمع إلى خرير مياه في نهر بعيد متخيل .

قال البدين الذي احمرَّت عيناه وهو يدفع جسده إلى الأمام:

– لو أنها أمطرت على الأقل .

ولـم تكن لدى الاثنين الآخرين : النحيف ، والقصير ، قدرة على الـنطق بشيء . في اليومين الأخيرين كانت الكلمات تخرج من الفم كأنها أحجار ثقيلة ساخنة وملتهبة.

ابتلع القصير ريقه يرطب به حلقه :

– قـيل لـنا إن قطعة الليل مسدلة خلف الجبل ، وهانحن قد تركنا الجـبل منذ أيام ، ثم جبلا ، وآخر ، والآن نمشي فلا نصادف سوى سـلاحف تطـل بأعناقها من جحورها ، وشجيرات صبار ، وضوء مـتدفق مـن كـل ناحية . ما من شيء ، تلاشى حتى نباح الكلاب الضالة الذي رافقنا الأيام الأولى .

قال النحيف :

– لـو كان الليل في مكان قريب لشاهدنا ولو ظلا من عتمته يعبر السماء .

توقف البدين لاهثا ، ثم ارتمى على الطريق جالسا وهو يغطي رأسه بيديه الضخمتين .

توقف الاثنان الآخران أيضا .

نظر البدين إلى ساعة يده وقال بصوت مذبوح :

- الثالـثة فجـرا ، والضوء ساطع كالجحيم ، حتى ذرات التراب مضاءة متوهجة.

ألقى النحيف بنفسه إلى جوار البدين متسائلا :

- ألا يجدر بنا أن نفكر في الرجوع ؟

أجابه القصير :

- نرجع ؟ ألا يحتمل أن نكون قاب قوسين من الليل ؟

زفر البدين :

- نعود إلى حياتنا دون شيء ؟

تبرم القصير :

- الضوء أربع وعشرين ساعة يبعث على الجنون .

تعجب النحيف :

- يحدق الجميع في أعين بعضهم البعض صراحة ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئا ، لم يعد هناك مكان لشائعة ، أو مال متدفق ، أو خطة تُدبر.

أوضح البدين :

- لابـد أن قطعـة الليل مرمية في مكان ما . كيف يمكن للحياة أن تستمر هكذا ؟

علق القصير :

- جفت حلوقنا ، ونفدت قوانا .

قال النحيف :

- مازال القمر يقف قبالة الشمس أبيض بلا ضوء .

تــناول كــل منهم جرعة ماء ، ومسحوا جباههم بقطرات منه ، ثم استأنفوا السير.

زحف البدين إلى الأمام والعرق يغطي عينيه والملح يحرق جلده مــتطلعا إلى نهاية الطريق . وكان النحيف يرسل بصره إلى السماء بحــثا عن طير يضرب الجو بجناحيه ، أما القصير فراح يدفع أنفه إلى الهواء لعله يتنشق شيئا غير رائحة الدخان والحريق .

ســحابة رماديــة ركضت مسرعة في السماء . أشار النحيف إليها صائحا بلهفة:

- انظرا !

تطلع الاثنان الآخران إلى السماء .

هتف النحيف وركبتاه تصطكان من التعب :

- لعلها الظلمة قريبة منا في مكان ما .

اضطربت عينا البدين المحمرتين بهوس وغمغم :

-لابد أنها وراء هذه الرابية .

غـذ ثلاثـتهم السير ، وانحرفت الطريق بهم يمينا ، ثم ارتفعت إلى أعلى ، وظهرت رابية عالية توقف عندها الثلاثة يلتقطون أنفاسهم .

وضع الطويل حافة يده فوق عينيه :

- لا أرى شيئا .

- ألم نقترب قليلا ؟

- ربما . لكن لا يبين شيء من هنا ولا يُسمع صوت .

- دقق النظر !

- لا شيء . بحر من الضوء !

مكثوا فوق الرابية يفتشون في الأفق عن خيط من ظلمة .

تقدم البدين باقتراحه :

- نستريح اليوم ونواصل السير غدا ؟

- كلا .

- فلنمض .

واصلوا سيرهم منهكين من الضوء .

◘ ◘ ◘

غيمة

توفيت أمي فجأة قرب الفجر ، وهي جالسة بكامل قواها العقلية والنفسـية . لم تنطق إلا بكلمتين : جرعة ماء . اجتهد الموت معها وقدم أسبابه ثلاث مرات ، ردته، فهبط عليها كما هو مجرد موت عار من أي منطق ، دون سبب ظاهر يتعزى به العقل . ولم يبق أمامـنا على سريرها سوى القشرة الخارجية للروح التي كانت أمنا لسنوات طويلة .

طبعـتُ قـبلة على جبينها وهي ممدة أمامي وانصرفتْ دموعي لمشقة حياتها أكثر من أي شيء آخر .

سـألتُ نفسي : ما الذي يمكن لها أن تقدمه للموت بطاقة أخيرة وهـي تعـبر إلى الأبدية ؟ لابد أن هناك معنى يتصل بالعلاقة بين انـتهاء الحـياة وابتداء الموت ، جسرا صغيرا ، إذا لم يجده المرء يصبح الموت نهاية الطريق . ترى هل وعت شيئا تتكئ عليه وهي تسير إلى العالم الآخر؟

أنهينا كل الإجراءات اللازمة بسرعة كالمعتاد في هذه الحالات . جـرى عمـي واسـتخرج تصريح الدفن وقبل أن يعود لاهثا، كان آخـرون قد استقلوا سيارة واتجهوا إلى مقابر العائلة لإعداد المثوى، بينما قصدت أنا مع اثنين من أقاربنا محل الحانوتي . وأصبح الموت موضـوعا للفصال مع الحانوتي البدين الذي طالب بخمسمائة جنيه عـن التغسيل وقماش الكفن والنعش وسيارة النقل . وبعد نحو خمس سـاعات تحركت عدة سيارات إلى مدافن العائلة وهي تجهد لكي لا تفقد مسارها في الزحام .

*　　*　　*

توقفت أختي الكبيرة عن التردد على البيت مع أطفالها بعد وفاة أمـي . قالت : لا أستطيع أن أدخل فلا أجدها . وأخذ أخي الأصغر يكـرر علـى مدى شهرين أنه مازال يرى أمنا من حين لآخر وهي تقطع الصالة بهدوء ، بل ويجدها تتحدث إليه حين يكون واقفا بمفرده في المطبخ أو الحمام . وبعد فترة قصد أخي طبيبا نفسيا يسأله منوما أو مهدئا . قال له الطبيب إنه يعاني من هلوسة سمعية وبصرية عادة مـا تظهـر بعد وفاة حبيب أو عزيز . أشفقنا جميعاً على أخى لأنه يعـيش في نفس الشقة تحيطه أنفاس أمي وأشياؤها . وكنا نستشعر

صعوبة وضعه إذا تجمعنا في البيت لسبب أو آخر ، لأننا كنا نحس أن طيف أمي يجوس صامتا سجينا في الهواء .

وخوفـاً على صحة أخي ارتأت ثريا زوجته أن تغيرَ أثاث البيت قطعة بعد الأخرى ، حسبت أن ذلك سيبدل الجو القاتم. هكذا فوجئنا ذات يوم أنها اشترت طقم صالون جديد . وحين شاهدناه في مدخل الشـقة ابتسمتْ بحرج خفيف وهمهمت كالمعتذرة وهي تفرك فوطة بـيدها: نـوع من التغيير. قالتها كأنها تطلب المغفرة . تأملنا الطقم وأبدينا إعجابنا به . لكني شعرت أن شيئا من روح أمي التي اعتدتُ علـى رؤيتها على كرسي بعينه قد ولى . ثم بدلت موقد الغاز القديم بآخر اشترته بالتقسيط ، فتلاشت صورة أمي وهي واقفة في المطبخ تغلـي المـاء للشاي في إبريق صاج تقشر طلاؤه . وعندما اختفت المنضـدة القصـيرة التي كانت أمي تجلس خلفها لتفطر كل صباح أدركنا جميعا دون أن ينطق أحدنا بحرف أن ما تبقى من السيدة التي أطعمتـنا وسقتنا ينزلق من بين أيادينا إلى العدم . في النهاية قررت ثريا أن تطلي جدران البيت بزيت أخضر لامع . وحلت مكان روح أمـي التي كانت تجوس بين أشيائها في الشقة صورة كبيرة لها في إطـار مذهب توحي ليس بالرغبة في استبقاء وجه أمي طيلة الوقت علـى مـرأى من الجميع بقدر ما تشى بأن المساحة الممنوحة لهذه الـروح قـد تقلصت بحجم إطار الصورة ، وأن علي أمي من الآن

فصاعدا أن تقنع بوجودها الذي تقلص وثُبت بمسمار في الجدار دقته ثريا بارتباك على عجل .

*   *   *

ربما منذ أن شرع العمال في طلاء الشقة ، أو قبل ذلك بقليل ، صــرت أرفــع رأســي للســماء دون سبب ظاهر أثناء سيري في الشوارع . كان ذلك يحدث أحيانا ، وأنا أمشي بمفردي ، فإذا كان ثمة من يسير معي واستغرب ما أفعله ، داريتُ نفسي بنظرة خاطفة إلـــى مـــا بين قدمي أو إلى واجهة أقرب محل ، دون أن يبدد ذلك الحيرة الصامتة في عيني الآخر بسبب نظرتي المفاجئة نحو السماء.

كنــت أرفــع عيني إلى أعلى بحثا عن شيء مجهول لم أره من قــبل. ربما كان سحابة كبيرة بيضاء ، أو فراغا لا أدري شكله ، أو روحا كالغيمة منداة بالدمع .

*   *   *

ساعة دفن أمي كنت مسروقا من نفسي ، فلم يعلق بذاكرتي سوى ذوب صور مما جرى ونحن نعبر البوابة الحديدية العالية إلى مدخل المدفــن بين صراخ أطفال وشحاذين ومقرئين نحو الفسحة الداخلية المدورة المبلطة ، وعيناي كأنما في حلم يراه شخص آخر تمسحان

بنظرة غائمة أسماء الراحلين المنقوشة على الشواهد الرخامية العالية في الجدران. غالبية الأسماء معروفة لي . من بينهم تهاني بنت عمي الأكـبر . كانت لهم فيلا من طابقين بحديقة واسعة مزروعة بأشجار المـانجو والجوافـة والليـمون في أرض النعام، خيم عليها حينذاك هـدوء، وصحا فيها هواء نقي ، وتناثرت المساكن القليلة فيها على مسـافات بعـيدة . كنت متيماً بتهانى وأنا في الثالثة عشرة ، مغرما حتى باسم التدليل الذي ناديناها به "توتة " .

كانـت أكـبر منـي بعشر سنوات ، لكن نظرة عينيها الواسعتين الصافيتين كانت حين أتطلع إليها ترتجف كسماء يشقها ضوء نجمة. وصـار مـن عاداتي أن أستعد لزيارتها عصر كل خميس فأشتري خصيصـا لأجلها عددا جديدا من مجلة " مئة نكتة " ، وأعكف عليه طـيلة الليل أحفظ منه قدر ما أستطيع ، ثم أنام مؤرقا . أستيقظ يوم الجمعـة مع أول خيط من النور ، وأظل فترة أنتقي الأفضل من بين ثيابي القليلة . ثم أتجه إلى الشارع الموازي لشارعنا ، أركب الباص مـن الموقف ، وأرتكز برقبتي على حافة نافذة مقعدي ، وأسرح في الشوارع الخالية التي يقطعها الباص زمنا طويلا ، وتوتة فى خيالي ومناظر الطريق تتبدل.

أصـل إلى بيتهم ، وأتجول مع " توتة " في الحديقة براحتي ، لأنني صبي ، أحكي لها أي شيء فتعلق على كل ما يقال بضحكة :

معقول ؟ لا . لا ! وتغرق في الضحك وهي تهتز مرتجفة مع هواء الحديقة الواهن المشبع بعطر الليمون . أسرد عليها النكات واحدة في إثر الأخرى بلا توقف ، فتضحك وتضحك حتى تفيض عيناها بدمع الحـــنان وتطبع على خدي قبلة خاطفة وحمرة تصعد إلى وجنتيها . أتجمـــد فـــي مكانـــي كالمذهول ! تردني إلى وعيي بسؤال – كأنه استفسار عابر – عن أحوال خالي الذي أوشك على إنهاء تعليمه . لم أعـــرف أبـــدا إلـــى أن خطفها الموت إن كانت تداري بالقبلة حبها لخالـــي؟ أم كانت تداري باستفسارها عنه حبها لي؟ كنت أصغر من أن أسأل ، وكانت أكبر من أن تبوح .

في المدفن كان شعوري باهرا بضوء الصبا القديم الذي انبعث من المـــوت ، كأنننـــي لم أكن واقفا أودع أمي التي نمونا على ذراعيها كحـــبات عنب على فروع التعكيبة . كأنني جئت لألتقي توتة . كنتُ أشـــعر بوتـــر رنـــان يهزني من محبة لم أتوقع ظهورها بهذه القوة وغمرنـــي تأنيب عذب ومؤلم للفرح الخفي الذي أحسسته من لقائي بتوتة بعد كل تلك السنوات .

ســـألتُ نفســـي : إن كانـــت الطاقة لا تفنى ، فإلى أين تنصرف مشاعر الدفء والحب التي يهبها البشر بعضهم البعض ؟ هل تتجمع في مكان ما وفقا لقانون خاص وهناك تواصل حياتها في شكل آخر؟

لكــن .. أيــن ؟ هــل تسبح مثل غيمة من الأرواح تسأل برفق عن أحبائها ؟

لم أهبط مع أمي إلى قاع القبر . ولم أحملها إلى هناك . لم أفعل ذلك مع أبي أيضا حينما ألقوا به يوما إلى هوة سحيقة. لم أستطع . فالموت مثل حكم بالإعدام ، أما الدفن فيشبه لحظة التنفيذ حين ترى العينين والوجنتين وهي تُدفع دفعا إلى التراب .

◘ ◘ ◘



تصادف أننى..

تصادف أنني رأيت عينين واسعتين ، لا تنكسران من أنوثة قدر مـــا تغدقـــان علـــي الجالس إليهما شعورا حادا بالقوة والوضوح ، كأنهمـــا حقـــيقة ظهـــرت فجأة لا تقبل الجدل أو الشك . عن هاتين العينيـــن كتب شاعر في مقتبل العمر على كرسي بمقهى في الثانية فجرا من مطلع يناير ١٩٤٣ يقول :

" حولي عينيك إني لا أطيـــق
ما تصبان بنفسي من حريق "

كـــان شـــابا نازحـــا من الريف كل ثروته قصائده وآماله الجارفة وصـــوته العمـــيق . التقـــي بها في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مصادفة وهو يلقي شعره هناك ، فكتب لها والقلق يأكل روحه والنار تلفح وجهه :

" حولي عينيك إني لا أطيق "

ومنذ أن تطلع إليها الشاعر الشاب مأخوذا بها يقرأ عليها قصيدته بصوته الجهير ، لم تحول عينيها عنه ، تلك الشابة الجميلة التي ضج بدنهـا الملفـوف بعنفوان وتماسك هائلين ، لم تنقل عينيها أبدا إلى شـيء آخـر ، حتى عندما أهملَ الحب الأول ، وتقلبَ من ذراعي امـرأة إلـى أخـرى ، ومن بيت لآخر، ومن أطفال لأطفال ، ومن قصيدة لأخرى بلا نهاية . ظلت تتبعه عينيها وحبها الثابت لأنه كان حقيقة ومعنى وجودها كله .

تعرفتُ إلى هذه الشابة الجميلة عام ١٩٤٨، كنتُ صغيرا حينذاك. أطعمتنـي لقمًـا مدورة بأصابعها وأنا أهز ساقي من فوق أريكة في بيـتها ، وسقتني . وتصادف أنني رفعتُ رأسي أحدق في وجهها ، ورأيت عينيها : واسعتين تسددان إلى أغوار القلب طاقتها وحيويتها.

عـام ١٩٧٢ تركتُ مصر وكانت السيدة تقترب من الخمسين. لم أرهـا بعـد ذلك لزمن طويل ، كانت خلاله تكبر ، اختلفت مشيتها قلـيلا ، وأمست تخطو ببطء بكتفين محنيتين شيئا ما ، لكن دون أن تحني رأسها أو تتحلل في عينيها بلورةُ النظرة المتماسكة .

كان أصحاب الدكاكين أسفل العمارة التي تسكنها قد ألفوا تجوالها الصـباحي وحدهـا فـي الشـارع بعباءة سوداء مسدلة ، تشتري الصـحف والخبز ثم تقفل راجعة تصعد إلى الطابق الثالث وتتوقف بعـد كل طابق لاهثة تستند إلى درابزين السلم، إلى أن تبلغ شقتها

فتدخل وتلقي بما في يديها على كنبة بغرفة الجلوس ، ثم تدفع بيديها الاثنتيـن مصـراعي الشـرفة ، وتلبث قليلا تتفرج بتيار الناس في الشـارع يمضي ويتفرق تحت بصرها في كل ناحية ، والباعة عند عـرباتهم ، ولغـط الحياة ، وأخيرا تنسحب إلى الداخل ، تقعد على الكنبة وأمامها ترابيزة مرتفعة ، تشرب قدحين من الشاي من إبريق على صينية : الأول باللبن والثاني سادة .

حيـن رجعتُ إلى مصر بعد سنوات ، كان الشاعر قد غادر هذا العالم ، وتفرق أبناؤها ، وصارت تعيش بمفردها في الشقة الفسيحة الصـامتة تنسي أشياء وتذكر أشياء أخرى . عرجتُ عليها ، ربما كـان ذلـك عام ١٩٩٠ أو بعده . وجدتها كما هي تقريبا . تشرَّخ صندوق الكمان ، أما الأوتار فظلت دون تغيير يُذكر مقرونة مازالت بلحـن وغـرام قديمين . قرب المنضدة التي تجلس إليها كل صباح احتفظـت بديـوان قصـائده، وفرشاة كان يرجل بها شعر رأسه ، وخطابات قديمة يعود تاريخها إلى عام ١٩٤٦ ، و١٩٤٧ ، وأخرى أرسلها إليها من داخل المعتقل عام ١٩٥٣ .

عيـناها كانتا نفس العينين الواسعتين ، تشاكسان بتحد ضاحك . لكن شيئا فيهما بعد رحيل الشاعر كان ينفلت من دورة الحياة حولها و يصـب روحها كلها بعيدا في عالم آخر . أدهشني أنها ما زالت

كما رأيتها وأنا صغير تعيش حقيقة واحدة ، كما يحيا الإنسان على ضوء نجوم ربما لم تعد موجودة منذ زمن بعيد .

قاومــتْ الشــابةُ ، العجــوز ، ذات العينين الواسعتين ، الزمن ، وخرجتْ معافاةً أكثر من مرة بعد اشتباكها بالمرض ، ولم تدع شيئا يطفئ بريق عينيها اللامعتين، لكن قواها كانت تخور بالتدريج ، إلى أن أغلقتْ عينيها فجر يوم الاثنين أول مايو .

فتحتْ باب غرفة نومها في الثالثة والنصف ، وخرجت إلى الصالة، ومــنها إلــى غرفة الجلوس حيث كانت ابنتها تلعب الورق مع ابن عمهــا . وقفــت في فرجة الباب الموارب وقالت لهما وهي سعيدة بونــس الليل : سأتسلى معكم بلعب الورق . دخلت وحطت جسدها بتــثاقل علــى الكنــبة أمامهما ، ثم تحاملت على نفسها تعتدل أمام المنضــدة ، وقالــت لابنــتها : شغلي المروحة . فقامت وأدارت بإصــبعها مفــتاح المروحة المعلقة في السقف ، وقبل أن تستدير ابنتها إليها بالكامل سمعت صوت ارتطام رأس أمها بالجدار ، ورأتْ في لحظة كيف جرى خيط دقيق من الدم من أنفها فصرخت .

فــي حوالــى الرابعة أيقظني جرس الهاتف برنين متصل . وبعد نصف ساعة كنت أصعد سلم بيت السيدة. حينما بلغت الطابق الثالث رأيــتُ باب شقتها مفتوحا . دخلت . كانت ابنتها وابن عمها جالسين في الصالة مع الطبيب في صمت ثقيل مشوب بضوء الفجر .

دلفــت إلـــى غرفة الجلوس لألقي نظرة عليها : كانت مسجاة على الكنبة ، المروحة المعلقة في السقف تطن فوقها ، وقد تغطى وجهها وجســـمها بملاءة بيضاء خفيفة . رفعتُ الملاءة عن وجهها : كانت عيناها مغلقتين ، وفمها مفتوحا لأسفل قليلا . بدتْ كالغافية دون نفس أو حـــركة . كانـــت تلك أول مرة في حياتي أتأمل فيها روحا تترك بدنها . تأملتها مرة أخيرة وأحسست أنها تواصل التطلع إلى الشاعر الذي فتنها ذات مرة عام ١٩٤٣ حين قال لها : حولي عينيك.

دســـت يـــدي الاثنتين تحت كتفيها ورفعتها لأعلي . ضممتها بقوة وقبلتها . تمنيت لو تسري حرارة قبلتي إلى الروح الموغلة بعيدا .

◘ ◘ ◘



إغفاءة

أحـــيانا يبقـــي الضيف العجول وراءه سيجارة متوهجة عند حافة مطفـــأة، أحيانا ينسى الراحلون شعورا في غور النفس ولا يعودون لإطفائـــه . فـــي التاسعة من عمري كنت صغيرا في عالم عجوز ، جديـــدا في دنيا قديمة . وكنت نحيفا بسروال قصير وقميص خفيف حيـــن أسندت رأسي على ذراع أمي ونحن جالسين متلاصقين على دكة خشبية بغرفة مأمور السجن . كان الطريق الطويل والانتظار قد أرهقانـــي عندما دخل علينا والدي من الباب المقابل لنا . كانت يده اليمني مقيدة بحديد ليد الحارس اليسرى ، لكنه ما أن رآنا حتى تهلل وجه ، ثم ضحك بفرحة من حلق بوثبة واحدة في سماء عالية. رفع معصمه ومعصم الحارس المقيدين لأعلى في الهواء يقول لى: " لقد سجنت هذا الرجل لأنه شقي " . وتطلع للشاويش بجدية سائلا إياه : "أليس كذلك يا شاويش؟ " . أجابه الرجل الطيب : " مضبوط يا بك". وســـألني وهو يزحزحني ليجلس قربي : " شفت ؟ " . كنت صغيرا

جـــدا ولكنـــي كنـــت أعلم أنه محبوس ، مع ذلك أحنيت له رأسي بالإيجاب قاصدا أنني صدقته ، فابتسم أنه أشاع طمأنينة في نفسي ، وابتسمت أنني أرحته .

وكنت محبوسا فيما بعد ، وكان طليقا . زارني وجلسنا في غرفة مـــأمور آخر ، بسجن آخر . هذه المرة لم تسعفه حيل الكبار الأولى ولـــم تســـعفني براءة السنوات الأولى . راح يتطلع فيما حوله بقلق مفتشـــا في الغرفة المقبضة عن ريشة من طائر البهجة ، ثم وكأنما عثر عليها أخرج كيسا كبيرا دفع به تحت أنف المأمور قائلا :
" وضـــعتُ هـــنا كل الممنوعات معا الشاي والبن والورق والأقلام لتسمح بمرورها كلها دفعة واحدة " . وداري المأمور ضحكته بيده . فابتسم وضمني بعينيه يسألني دون كلام : " شفت ؟ ".

مرة ثالثة قدر لنا أن نكون معا وأن نرحل في السر من القاهرة إلى الإسكندرية ، لنغادر إلى بيروت على ظهر باخرة، ولم يكن معنا ملـــيم واحـــد . وكان البوفيه مفتوحا على سطح الباخرة طيلة اليوم ونحن جالسين أمامه في هواء البحر نتطلع صوبه ونشتهي قدح شاي كاليتامى . وعندما حل الغروب ضاقت فسحة الأمل وسألت نفسي : " ألـــن نجد حلا؟". ولم يحرك ساكنا حتى التاسعة مساء عندما أغلق البوفـــيه أبوابه وتلون الجو من ليل مبكر حولنا فوجدته ينتفض واقفا نافخـــا : " الحمد لله الآن سنأكل ونشرب كل ما نشتهي " . ولم أفهم

إلا بعد أن اتجه إلى قبطان الباخرة يحتج على إغلاق البوفيه مبكرا ! وتعــرف إلــيه القــبطان ففاض بالترحاب به وأقام لنا وليمة حافلة بمختلف الأطعمة والمشروبات اللذيذة .

وحينما غادرنا غرفة القبطان كان الليل سارحا في خواطره. ووقفنا معا تحت ضوء قمر واضح على سطح الباخرة المتأرجح ، وموج لا نراه يرشنا من تحت السور برذاذ خفيف. تطلع حوله يستوثق أننا وحدنا ، ثم راح يكتم ضحكاته المتدافعة وهو ينحني على هامسا : " شبعت ؟ " .

عــندما غادرنــي للمرة الأخيرة ، أخذت أتردد عليه في محبسه الأبدي ، وكان يأتيني من حين لآخر في حبسي المؤقت ، وكنت حين نلتقي أحكي له بعضا مما يطرأ على حياتي من حوادث و طرائف ، أمــا هو فكان يتألم لأنه كان يضطر للاكتفاء برواية نتف من أحداث قديمة . كنت أقطع له بأن حكاياته ممتعة مهما تكررت ، فأراه يسدد نحــوي نظرة شك وتعب . ومع ذلك كنا نحاول بإخلاص أن نحمي كــل مرة ما وعته الذاكرة من رذاذ الوجود الوهم . وكان إذا أحس حــرارة المحاولــة من جانبي يبتسم بأسى مجتهدا أن يحتفظ بعينيه مفتوحتيــن ، ثم ما يلبث أن ينعس ، وصوتي يتحدر إليه بالحكايات رتيبا أليفاً. أقص ما استجد من أحداث في الحي ، والشجارات التي وقعت ، وما قالته عمتي عن بناتها ، وحكاية عم زهران في حدائق

القبة حين هام بهدى التي أرخت ضفيرتين غليظتين وشرعت نهديها وفتحت في الدنيا عينيها الواسعتين .
أتركه ينعس قليلا ، وأعود إليه .

◘ ◘ ◘

نتف الثلج

ثبتنا أقدامنا على السلم الكهربائي بمحطة المترو وهو يهبط بنا من السطح إلى جوف المحطة التي بدت من أعلى كقفص حديدي ضخم لُجمت بداخله القطارات.

تقدمتنـــي في وقفتها على السلم والتصق ظهرها بصدري . انزلقــت يداي من فوق كتفيها ورقدتا معقودتين على صدرها ونحن نهبط على مهل .

التفــت أصـــوات الأقـــدام الراكضة إلى القطارات وصرير العجلات الحديدية ودقات كعوب الأحذية النسائية وأنصاف الكلمات فـــي ســـحابة تعلـــو ببطء فوق رؤوس النازلين إلى النفق. من على الجدار المقوس عن يميني أطل " جوركي " من صورة زيتية ضخمة بالبسمة والنظرة المريرة القديمة .

كـــنا فـــي طريقـــنا من محطة " جوركي " إلى محطة "شارع ماركس " لتوديع صديق مسافر يسكن قرب مخرج المترو.

توقف بصري على وجه نحيل لشاب يقبل صديقته وسط جموع النازليــن على السلم الكهربائي . بالتدريج بان لنا حراس المترو في زيهــم الأســود الخــاص . شــعرت بصدرها يتنهد ويرتفع بيدي المتقاطعتين فوقه كصليب . المصادفة وحدها جعلتنا نلتقي ، رغم أن حياتها وعملها في مدينة أخرى ، فكانت تنتهز أيام الإجازات لتسافر إليّ ونتقابل .

أحسســت خلف رأسي بأنفاس رجل بدين يتنفس بصعوبة . ملت أتــأمل صفحة وجهها المعذب . هل حلّ عليها التعب بعد أن تقطعت المحبة سنة بعد سنة إلى خطابات ومكالمات ؟ لماذا تبدو دائخة ؟ هل أرهقتها ألوان التعبير التي تتبدل على مختلف الوجوه ؟

غــاص بــنا السلم الكهربائي إلى الدرك الأخير حيث يجلس كل حــارس فــي كابيــنة خاصــة . قطعنا عدة خطوات بين الأكتاف والأيادي وأبدان المهرولين في كل اتجاه إلى أن وصلنا إلى رصيف القطار اللازم ، فتوقفنا . رفعتْ نحوي وجهها بعينين دافئتين وقلق وغمغمت :

– أحس بنفسي متعبة .. لا أدري لماذا .

ثبت بصري على ملامحها الشاحبة الرقيقة وقفز لرأسي خاطر أنها قــد تــتخذ قــرارها الآن بقطع ما بيننا . ضممتها إلي، فلما أراحت

رأســها علــى كتفي شعرتُ بأننا كتلة واحدة حارة انعدم من حولها النفق والسقف المرتفع واللغط .

أطلت القاطرة من جوف الظلمة كوحش يُساق بالسياط . وانفتحت أبــواب العــربات وانطلــق الخــارجون يتقاطعون بسرعة في كل الاتجاهــات ، وعــندما لفظت القطارات ما بها دخلنا ولمحنا مكانين شــاغرين فاندفعنا إليهما وقعدنا . أخذت عربة المترو التي ازدحمت مــن جديد تتحرك وتعوي كوحش بين جانبي النفق المظلم . مرقت الجدران المعتمة بسرعة من وراء زجاج النوافذ . وكان الفتى النحيل الوجه قد جلس قربنا ساهما ورأس صديقته على كتفه . مقابلنا قعدت امرأة أرسلت نظرتها إلى فراغ ، وبجوارها طفلة تخطف العين . بدا من الخاتمين الذهبيين أن الفتى وصديقته مقترنان . طبعتُ قبلة خفيفة على شعر صديقتي المرسل على كتفيها وطوقت خصرها ، فتأملتني لحظة مبتسمة بوهن وصفاء .

توقــف القطار . محطة " مايكوفسكي " . تدافع الخارجون . لاح بيــنهم الشــاب النحيل الوجه وزوجته ملتصقين كموجة في بحر . تدفقــت لباطن العربة جموع أخرى . اتجه رجل قمحي اللون على أعــتاب الخمسين إلى المقعد بجوار الطفلة ثم أخرج صحيفة مطوية من جيب البالطو وأخذ يتصفحها . دخلتُ عربة المترو النفق المظلم ثانــية . صديقتي مستغرقة في دنيا أخرى . هل هو نفس السؤال ؟

قلــبٌ مقســم على مكانين ، سنة وأكثر وخيط مشدود من أعصابنا وشبابنا يتوتر حتى يكاد ينقطع . والعمل ؟

تحــاول الطفلة الصغيرة بكل الطرق جذب انتباه أمها إليها لتتكلم معها . تأسر حركات البنت الرجل القمحي اللون . يتفتح في بسمة ، وبكلمــات هامســة فــي أذنها يسرق اهتمامها كله ، فتعتدل ناحيته مسرورة . على مسافة ترنح رجل بين الواقفين يزفر أنفاسا مخمورة ثقيلة. تشبثت يده بالعامود الحديدي ، بينما مدت ذراعها تسنده امرأة روســية قصــيرة صــابرة . زعقَ فيها زعقة هائلة وراح يتحرش بالــركاب مفتشا عن عدو له في نظراتهم . تطلع إليه البعض بدهشة وهدوء. أحسستُ بكفيها تحطان على يدي . التفتُ إليها . حدقتْ في بعينيــن مغرورقتيــن بسحابة دامعة . شعور ثقيل يواتينا بأن النهاية تحوم بجناحيها فتظلم الدنيا تحتهما . أردت أن أشغلها عما بخاطرها فهمستُ لها :

– ألا تتمنين بنتا جميلة كهذه ؟

قالت :

– نعم .

واستجمعتْ أنفاسها لتضيف بما تيسر من مداعبة :

– أمها أيضا حلوة ؟

ابتسمت لها في صمت . أي صراع يعتمل في روحها ؟ وأية آمال؟ . يلح عليها مشروع الإقامة في موسكو .. لكن ما الذي يخفيه الزمن لنا ؟

توقفت العربة . محطة " ساحة الثورة " . غادرت المرأة القصيرة الصابرة وهي تسند الرجل الثمل . راح يتلفت من على الرصيف متطوحا يتفحص وجوه الركاب من خلال نوافذ العربة . كان ما زال يبحث عن عدوه الذي لا يعرفه .

واصلت العربة اندفاعها . المحطة القادمة " شارع ماركس". وقع بصري على شاب يشبه صديقي بأنفه الحاد وجبينه العريض . الرجل قمحي اللون يضع حقيبته الجلدية على ركبتيه ويفتحها . يخرج منها أقلاما ومجلات يناولها للطفلة لتتفرج . الطفلة تجذب المجلات بقوة وتضحك مشيرة بإصبعها إلى صورة ملونة . رمقتْ أمها الرجل باستغراب خفيف ثم انطفأ التعبير في وجهها وعادت ذاهلة ترسل نظرتها إلى الفراغ أمامها .

سنهبط المحطة القادمة ، ونتجه إلى منزل صديقي لتوديعه قبل سفره إلى الوطن .

كل وداع ينطوي على مرارة . قال لي ذات يوم : " الموت في جحيم مصر أبقى من حياة الجنة خارجها " . لمَّ حاجاته وقرر الرجوع . شعرتْ صديقتي أني مستغرق في شيء . رفعت رقبتها متطلعة إلى

وجهـــي . لـــم أعد أدري بم سينتهي كل ذلك . هل تسافرين معي ؟ أظل هنا ؟ أم ننسى كل ما بيننا ؟

امـــرأة واقفة بكيس ثقيل من بطاطس وخبز في يدها قالت ضاحكة للرجل القمحي:

– حلوة بنتك هذه .

تأملتُ الرجل والطفلة معا . ورأيت – كأنما فجأة – أنهما يبدوان كـــأب وابنـــته حقا. نقلت بصري إلى الأم وشاهدتها بعين أخرى : راكبة عابرة جلست بالمصادفة بالقرب منهما .

توقفت عربة المترو . محطة " كارل ماركس " . خرجنا في موجة المتزاحمين ويدانا متشابكتين . التفتتْ إلى وقالت بصوت مضطرب:

– سأبقى في موسكو وأبحث عن عمل هنا .

كـــان بصوتها رنة ضياع تفتش عن عزيمة . ضممتها إلى صدري ضـــمة خفيفة لكي لا ترى نظرتي . صعد بنا السلم الكهربائي إلى أعلـــى فـــي بطء . شيعتنا نظرات الحراس بثقالة من صوف الزى الأسود .

خرجـــنا من الجو الدافئ داخل محطة المترو إلى برد الشارع . مـــرق المـــارة مســـرعين فـــي مختلف الاتجاهات بمعاطف سميكة متشـــابهة . قرصـــتنا الـــريح الباردة تهب من جليد وراء سور من أشجار بعيدة . لاح كشك قريب على الرصيف في هالة ضوء أصفر

ضـــعيف ، أمامـــه تناثرت عدة مناضد ، جلس البعض إليها يحتسى المشروبات الساخنة.

جمعــتْ صـــديقتي أطراف معطفها على صدرها. تطلعنا معا إلى الكشـــك . واتفقنا بنظرة على أن نحتسي فنجاني قهوة قبل أن نصعد إلى صديقي .

أســـرعنا الخطـــو إلـــى هناك ، والأشجار العالية عن يميننا تلقى بظلالها المتعاقبة على الرصيف . في ضوء أعمدة النور كانت ندف الثلج البيضاء المتساقطة تلمع كشرارات متلاحقة فوق الأسفلت المبتل ثم تنطفيء .

◘ ◘ ◘

قرب الفجر

لا . لــم ينقطع الحديث . وكان الجميع يتجاذبون أطرافه بحيوية وهم يدخنون ويشيحون بأيديهم من مختلف جهات ومقاعد الفسحة . ولــم يكن ليخطر لك – لو أنك طرقت الباب ودخلت – أننا كنا في انتظار أحد . فلم تكن علامات الترقب أو القلق ظاهرة على أي منا . بــالعكس كانت الأصابع تمتد إلى سطح المنضدة الزجاجي الشفاف وتلــتقط المكســرات والعصائر ، والعيون تلمع بالاستجابة السريعة للتلمــيحات ، أو تدمع من القهقهة للنكات المرسلة . كان لابد لك أن تكون من ذلك النوع من البشر ذى القدرة على الملاحظة الدقيقة ممن يثقــبون بنظراتهم المتفحصة هالات السطح البراق وينفذون إلى ما تحــته لكي تلحظ أن من بيننا من يسترق النظر بسرعة خاطفة إلى ســاعة معصمه ، وأن أحدنا ينهض كأنما تعب من جلسته واعتماده علــى الوســائد الصــغيرة ، ثم يخلع جاكتته ويذرع الفسحة محركاً جسمه ورقبته ، لكنه يبطئ خطوه لأقل من ثانية حين يدنو من الباب

ويــرتجف زغــب خفيف بأطراف أذنيه يتنصت على هواء السلالم وراء باب الشقة ويمد السمع إلى الطابق الأول ومدخل العمارة حتى حلق الشارع الذي يلمع بالأضواء أمام المحلات .

ظللــنا نترقــب مقدمـــه طــيلة الليل حتى عندما فرشت السفرة بالأطــباق . لكــنه لم يأت. ولم أعبأ بذلك . إلا أني أحسست بكدر خفيف . قيل لي إنه من الأفضل أن أتعرف إليه ، قد ينفع أولادي ، وقــد يســاعدهم على شق طريقهم . استغربت حينذاك ، ولم أعلق بشيء . قلت لنفسي : " ربما تلوح فرصة غير مصطنعة لمقابلته " . والحــق أنـــي لم أسع إليه رغم شعوري بمنزلته ، ولم أجتهد كثيرا لتدقيق ما يشاع عنه . الكلام كثير والأصدقاء يخلطون بين الحقيقة وتصوراتهم الذاتية عنها ، وغالبا ما يصبغونها بلون قاتم من مشاعر شخصية نجمت عن وقائع خاصة . لكنهم استثاروا فضولي بإجماعهم على أنه شخصية ذات شأن ، لابد – سواء اتفقت أو اختلفت معه – من أن تحسب له حسابا .

مرة واحدة ومض جانب من وجهه عندما لمحه صديق فأشار إليه بسبابته من بعيد ليريني إياه هاتفا : ها هو ! . كنا ساعتها في زقــاق ضيق يلتوي كالأفعى يعج في جانبيه بمنصات مفروش عليها ملابــس مـــن كل الأنواع ، وصياح ، اخترقه موكب جنازة صغير

مضـــى فـــيها صبي بجلابية ينط في الهواء رافعا يديه إلى أعلى ، ويهبط إلى الأرض .

تصورتُ أني لمحت جانب وجهه ، ولكني في الحقيقة لست واثقا مـــن ذلك . ربما خيل إلى من انفعال صوت محدثي وثقته وارتجاف ســبابته أنـــي أيضا لابد أن أكون قد رأيت شيئا منه قبل أن يتوارى بسرعة في عتمة منعطف جانبي على ناصية محل تسالي . ولم تبق فـــي ذاكرتي من صورته سوى ذيول من ظلال تغيب في الظلام . لكني حمدت الله حينذاك أني لا أرتب حياتي على علاقة به أو اعتماد علـــيه ، كما فعل بعض أفراد عائلتي ممن لا يكفون عن ذكر اسمه باحترام .

كان بيت عمتي نفيسة – هي عمة والدتي لكن جرت العادة أن يناديها الجميع بـــ " عمتي" – من البيوت التي تُكثر من استقباله. فسَّـــرتْ أمـــي لـــي ذلـــك يوما بقولها : " لأن عمتك نفيسة كانت تستضـــيفه مـــع المـــرحوم جدك في المناسبات ، وهو على مشاغله وترحاله لم يقطع حبل الود " . كانت عمتي هذه تسكن في الزيتون ، وتعـــيش وحدهـــا بعد وفاة ابنها بسيوني . أدهشني وأنا صغير أنها تقريبا فاحمة السواد مع أن جدي كان شاهق البياض . وقالت لي أمي إن جد جدي كان متزوجا من تركية أنجب منها جدي ، ومن حبشية

أنجــب منها نفيسة . وكنت ألزم نفسي بزيارتها إذا تصادف وكنت ناحيتها.

جلســتْ كعادتهــا دائما بالقرب من صينية صفراء نحاسية عليها موقد سبرتو فوقه كنكة قهوة صغيرة مطروقة بالفضة . تهلل وجههــا الطيب وأنفها الضخم وحنكها الواسع من السرور لمقدمي . كانت تمشي بصعوبة و تحيا على معاشي زوجها وابنها إلا أن شقتها كانت نظيفة دائما يجري هواؤها متجددا . قالت لي بصوتها المسلوخ المــرتفع : "عمتكْ عجوز صحيح لكن الناس لا ينقطعون عني لأن جلســتي ترد الروح ، كما أنه – واكتفت برفع حاجبها إشارة إليه – قد يزورني ولا بد أن يكون المطرح نظيفا ".

صدرت عني كلمة عابرة وأنا أشرب القهوة ، فأشاحت بذراعها مستنكرة : " لا تصدق كلام الناس . إنه لم يدع أحدا في ضائقة دون أن يشــمله بعطفه . لا يكرهه إلا من يخافونه لدناءة في نفوسهم أو حسد " .

فكــرت أنه لابد من مقابلته إن حانت الفرصة لأرى من يكون . ولمــا دُعيت تلك الليلة إلى العشاء وقيل لي إنه سيحضر ذهبت إلى هناك بأمل .

كــنا جمــيعا نترقب قدومه دون أن يُظهر أحدنا علامة على ما بداخله .

لكـــنه لم يأت . وغادرت المكان حوالي منتصف الليل . انتظرت الأتوبـــيس طويـــلا في الشارع تحت رذاذ مطر ، وعدت إلى بيتي وزوجتـــي التي سألتني ما أن فتحت لي الباب: " قابلته ؟ " . قلت وأنـــا أنفـــخ ضـــجرا : " كلا . لم يحضر ولم يكلف نفسه الاعتذار بالهاتف ".

قـــررتُ بعـــد تلـــك الليلة ألا أصدع رأسي به . جاشت نفسي بغضـــب: مـــن يكون ؟ مجرد دخان كلمات وآمال وجزع واحترام ونظـــرات أشخاص آخرين . وقلت لروحي بحزم : "أيا كان سلطانه ومنزلته فلنفسه وليزدرد كل ثرواته في وحدته دون أهل أو صديق ". طردت طيفه من عقلي . وساعدني على قراري أني وأنا في عملي ذات صـــباح فتحت جريدة فوجدت خبرا في صدر إحدى صفحاتها عن سفره إلى إيران ومنها إلى أرمينيا . وأبديت دهشتي من رحلته إلى أرمينيا فعلق زميلي الجالس أمامي بقوله : " أشغاله تملأ الدنيا" . قلبـــتُ شفتي السفلى من حسد خفيف ، فأشاح بيده : " أنتَ عجيب . قريبك ، ولا تستنفع منه بشيء ؟! " . لكن سفره خارج البلاد لفترة طويلـــة أمدنـــي بقدرة على إبعاده عن ذاكرتي ، أو هكذا خُيل إلى وقتها. وانغمستُ في شئون متعددة من حياتي إلى أن لمحتني زوجتي ذات يوم وأنا أخرج من مطعم "فلفلة" متأبطا ذراع زميلة من العمل . لـــم أعلم أنها شاهدتني إلا حين دخلتُ البيت فارتطمتُ بها ثائرة في

الــردهة. جذبتْ شعر رأسها مُهددة بأنه سيأتي بنفسه غدا وساعتها يكــون الكلام . ومضتْ إلى المطبخ حانقة تنعي حظها في الحياة . همس لي ابني الأوسط بأنها اتصلت بوالدتها في الفيوم وكلمتها عن الطلاق ، فوعدتها أمها بفتح الموضوع معي .

تعمدتُ في اليوم التالي أن أرجع إلى البيت في ساعة متأخرة من المســاء لكي تعي أنني لا أخشى أحدا أيا كان . وأنا أفتح باب الشقة أمضــني أمــل خفي أن يكون جالسا في الصالة عندنا فأراه وأتمعن فــيه. لكني لم أجده ، فلزمت الصمت . قالت لي ابنتي في الصباح وهي تغسل وجهها في الحمام إنها نامت بالأمس مبكرا كعادتها ، ولا تدري إن كان أحد زارنا أم لا .

اســتأنفتُ حياتي لا أقيم له اعتبارا حتى دعيتُ بعد نحو شهرين إلــى منزل خالي عبد الرازق في الروضة . فوجدت سرادقا كبيرا منصــوبا من أول الشارع قرب العمارة ، وكلوبات معلقة ، ورجال بأحــزمة ســوداء علــى خصورهم يروحون ويجيئون بصوانٍ بين الجالســين . أول مــن قابلني خالي عبد الرازق ، راح يضمني بين ذراعــيه وعيــناه تدمعــان بوجد وفرح . سألته وصوتي مكتوم من عناقه: "ما الخبر؟". أطلقني ونظر إلى بتأثر : " لن تصدقني إن قلت لك إنه قادم إلينا هذا المساء . لقد وعد فاجلس وانتظره معنا " .

ظللنا ننتظر في شقة خالي إلى أن شعشعت أولى أنوار الفجر ثم صبغت السماء من وراء نافذة الصالة . أصاب الإرهاق بعضنا فقام ومـــدد جسده على الأرائك وعلا شخيره . ونهضت زوجتي بعد أن تســاقط رأسها مرات على صدرها ، واعتذرت بأنها لا تستطيع أن تــترك الأولاد وحدهــم فـــي البيت طويلا . بنظرة من ركن عينيها أدركـت أنها تحثني على البقاء متفهمة دواعيه . هدأت الحركة في السرادق وخفت اللغط الذي كان يتناهى إلينا . لم يحافظ على يقظته قرب الفجر كما كانت أول المساء سوى خالي عبد الرازق الذي ظل مفعما بثقته في قدومه ، فلم يخب بريق الوجد في عينيه .

قاومــتُ الــنعاس طويــلا واســتعنت عليه بفناجين القهوة المرة المتكررة ، لكني غفوت لحظة بعد أن ظلت عيناي مفتوحتين ساعات دون أن تبصــرا ، وعندما هززتُ رأسي بشدة لأطرد النعاس رأيته وهو يدخل بهدوء دون أن يُسمع لقدميه صوت. قطع غرفة الجلوس بعرضها متجها إلى خالي مباشرة . مدّ يده إليه يصافحه بود ووقار لطــيف ، وقعــد بجواره على الأريكة . تجمد بصري عليه . بسط ذراعـــه اليمنى على امتدادها ، وتموج في الهواء كمها المُنسدل يملأ ناظري كالفضاء . ثم تهيأ لكي يفضي بشيء ما ، لكن دخان السجائر العـــالق فـــي الجـــو ضايقه فنهض وسار نحو النافذة الكبيرة بصدر المكان ومد يده يفتح مصراعيها فتناثرت من تكسرات ثوبه الحريري

دوائــــر براقة كالأصداف أمام عيني . تابعت مشلول الإرادة رجوعه الصـــامت إلى أريكة خالي . ودفعت صدري إلى الأمام محاولا من مقعـــدي أن أتنصت على ما كان يهمس به هناك . وأرهفت أذني لا أدري كم من الوقت في المكان الأصم الشاغر .

◘ ◘ ◘

السند

قــبل الغــداء اشتد حر الظهيرة . صعد الصبي إلى سطح البيت بفانلــة داخلية بيضاء وسروال قصير قديم . راح وجاء على السطح دون هدف . إجازة الصيف طويلة وليس ثمة ما يفعله . تفحص عن قــرب كـــاوتش دراجة قديمة كانت لخاله فؤاد مرمية في ركن بين براميل خشبية . انتقل ببصره إلى علب الصفيح الكبيرة التي يجمع جـــده فــيها زبل الحمام . تأمل الوجوه الصامتة التي تسكن عناقيد العنـــب المتكتلة في فروع التكعيبة الصاعدة من أسفل البيت . شبَّ علـــى قدميه معتمداً بمرفقيه على حافة سور السطح . مد بصره إلى النخيل المترامي في الغيطان خلف الترعة .

كـــل يـــوم يقف هكذا على السطح حتى تعشى عيناه من جداول الضـــوء المنســـكبة نحوه ، ويطن رأسه من السكون والهواء الملون بوهج الشمس الأحمر وزرقة السماء .

ظلــل عينيه بحافة كفه متطلعا يساره إلى نهاية الطريق المحاذي للترعة . لا أحد . تأتي أمه لزيارتهم مرة في الأسبوع ، تلوح له من بعــيد نقطـــة صغيرة على الطريق.. تمشي نحوه . يطل رأسها من هــبوة غــبار بضـــوء الشمس ، ثم قدماها ، ويتأرجح وراءها ظلها الغـــامق بيـــن كـــلاب الظهيرة . تمشي نحوه وحقيبة يدها ترتطم بساقها. يخمن في خضم سعادته ما في الحقيبة : القميص الذي تنام به في المدرسة في القناطر مطوي داخل كيس بلاستيك ، وبرتقالات قلـــيلة . تخـــض الفرحة قلبه بشدة عندما تصبح أمه قريبة واضحة وتـــرفع عينـــيها إلـــى السطح لأنها تتوقع أنه يقف هناك يتطلع إلى الطـــريق ولا يفقـــد الأمـــل . تبيـــت معهم ليلة الجمعة. يتكلم معها بالســـاعات عـــن أي شيء وتتصرف هي عن أي شيء منصتة إليه باهتمام شديد .

نظـــر الصـــبي أســـفل البيت . في الناحية اليمني قرفص السند بجلابيـــته وفوقهـــا البالطو الخفيف الذي لا يفارقه . أحاطت رأسه عصـــابة رماديـــة . اعتمد بظهره على جدار الكوخ الذي بناه في الخلاء بمحاذاة بيتهم .

بعـــد فترة نهض السند وعلى كتفه عصا غليظة معلق بها دلوان فارغان ، مشى بهما إلى منحدر في الشط ، وأخذ يملأ الدلوين من مـــاء الترعة العكر . عاد إلى موقعه وهو يوازن ثقليهما بمهارة مع

خطـــوات قدمـــيه العاريتين وقرفص أمام الصحون الفخارية التي يبـــيعها ، بينما أخذ عياله الثلاثة يزحفون بذباب عيونهم إلى رقع الظل .

فـــي شـــرفة الطـــابق الأول ظهرت جدة الصبي بثوبها الأسود المرسل الذي رسم خطاً غامقاً في ضوء النهار . انحنت بوهن ترفع قميصـــا يشر ماء من طست الغسيل ونشرته على الحبل. استدارت عائدة إلى الداخل وهي تسحب الطست خلفها .

يـــترقرق المـــاء في الترعة بطيئا عكرا و يتحرك سطحه بفروع شجر محطمة وعلب صفيح صغيرة فارغة .

مـــال بوجهه يسارا وألقى نظرة على الطريق . بان لـــه عصام الألفي أحد الأبناء الثلاثة للواء الألفي صاحب الفيللا غير البعيدة التي تـــربض الكلاب تحت أشجارها وقت الظهيرة. كان يتقدم نحو بيتهم مفعمـــا بالـــثقة والغضب . وما أن شاهدته زوجة السند ذات الجسم الـــناحل والصـــدر الممســـوح حـــتى لمت عيالها من على الأرض وجرجرتهم إلى داخل الكوخ . السند أيضا لمح عصام الألفي بنظرة جانبية ، لكنه تظاهر بأنه لم يبصره .

دق قلـــب الصبي ، وضغط بطنه إلى سور السطح وشب بأصابع قدمـــيه ليتســـع المشـــهد لعينـــيه ثم طاشت مشاعره في انتظار ما سيحدث.

زمّ السند شفتيه وارتجفت عضلات وجهه وهو يركز بصره بإرادة فولاذية على الأواني الفخارية أمامه . دنا عصام الألفي إلى أن وقف أمـــام الســـند الذي تظاهر بانشغاله بتقليب صحن فخاري وهو يكتم رجفة كالكهرباء .

انفلت الصبي من وقفته وانطلق عبر باب السطح إلى السلم يطوي كـــل ثلاث درجات عتيقة بقفزة واحدة حتى وصل إلى الطابق الأول حيث يقيل جده . اندفع إلى غرفة جده ، وفتح بابها بجرأة ، ثم توقف بأنفـــاس مـــبهورة عـــند طرف السرير . حدق برهبة في وجه جده المتراخي تحت الناموسية . وسقط بصره على الإبريق الذي يواريه جـــده تحت حافة السرير لكي لا يغادر الحجرة إذا أراد التبول . ثم ارتفعـــت عيناه إلى آلة العود الملقاة مع منشة الذباب على كرسي قـــرب الســـرير . أحـــس الجـــد بأنفاس الصبي في فضاء الحجرة فانفرجت جفونه عن نظرة صارمة . سارع الصبي يبرر جرأته :

– السند يا جدي ! والنبي تلحقه !

تمتم الجد يبتلع ريق النعاس :

– عملها ثانية .. الصعيدي الحمار .

ارتـــد الصبي من الغرفة يطوي السلالم إلى السطح وقلبه يدق في صدغيه كالطبل .

الآن كان الألفي ينحني بجذعه كما في المرات الثلاث السابقة ليشد السند من شحمة أذنه بقوة آمرة لأعلى . تملص السند وتلوى جسمه فـــي الهــواء قلـــيلا حتى انصاع مجبورا واقفا. انهال الألفي على صـــفحتي الوجه الأسمر المجدور بصفعات مدوية متلاحقة من كف واحدة متصلبة كالحجر . مال وجه السند يمينا ويسارا مع الضربات وهـــو يبذل جهدا يائسا للإفلات . ضربه الألفي حتى بض خيط دم دقـــيق من ركن عين السند اليسرى . أحس الصبي فوق السطح أن وجنتيه تلتهبان مع كل لطمة واندفع الدم إلى رأسه ، وجاشت روحه بالمهانـــة والخـــوف ، ودعا لليوم الرابع على التوالي أن يصل جده بأسرع ما يمكن .

نجـــح الســـند فـــي التملص أخيرا ، وقعد على الأرض بلهوجة، وأمسك كما من قبل بأقرب صحن فخاري إليه يديره بأصابع مرتعشة أمـــام عينـــيه المحتقنتين في وجه معذب متهيج. أولاه الألفي ظهره بهدوء بالغ دون أن ينبس بحرف عائدا إلى الفيللا على نفس الطريق. وعـــندما تـــأكد الســـند أن الألفي ابتعد غطى رأسه كما في المرات السابقة براحة يده اليمنى وأطلق زفرة من صدره .

كـــان جده يصل متأخرا .. دائما ! ظهر وهو يعرج على عصاه فخرجـــت له زوجـــة الســـند من الكوخ وقدمت له الكرسي الخشبي

الوحـــيد لديهم . جلس وفرد ساقه اليمنى في ظل باب الكوخ . بعد لحظة قال جده :

– يا سند دول ناس كبار مالك ومالهم ؟ إذا كانوا أهانوك مرة فأنت تـــبرزت أمــــام مدخل فيلتهم عدة مرات . كفاية . لكن أن يستيقظوا فيصطبحوا بخرائك كل يوم قبل انصرافهم للعمل فهذا كثير؟!

لـــم يقــل السند شيئا . دارى انفعاله بصياحه على امرأته بنبرة الجـــنوب الغليظة " الشاي لعم يوسف " . رجاه الجد وهو يرتشف الشـــاي : " عدنــــي ألا تتبرز أمام باب الفيلا مرة أخرى " . أجاب السند " أهانوني يا عم يوسف . أهانوني جامد ".

صاح جده مستنكرا " أهانوك ؟! وخراؤك كل يوم حلو يعني ؟ ". طرقع السند بلسانه على سقف حلقه : " كل واحد وقدرته " .

ركز جده بصره لحظة على رأس السند ، وقام صامتا بيأس يعرج نحـــو مدخل البيت متذمرا لاعنا الصعيدي ودماغه الناشف . فوقف الســـند مقوسا كتفيه وراحتاه مبسوطتان لأسفل يصيح في أثره بنبرة عتاب : " أنت الخير والبركة يا عم يوسف. زعلت مني ؟ " .

ظل الصبي ملتصقاً إلى السور . مكث هكذا إلى أن ارتخت ذراعاه وأفرغـــت ركبـــتاه شحنة التوتر في رعدة . ألقى نظرة أخيرة على الطـــريق . كــــان الســـكون والحر يعتصران النهار والكلاب ترقد بضـــجر علــــى جوانـــبها تزحر بحنك مفتوح . أخذ الهواء الساخن

يلطمـــه بدوائـــر بـــراقة متوهجة ونقاط مضيئة بلا نهاية ، فلم يعد بوسعه التركيز على النقطة الصغيرة التي ستمشي نحوه وحقيبة يدها ترتطم بساقها ، النقطة التي ترفع عينيها إلى السطح لأنها تتوقع أنه هناك لا يفقد الأمل .

◘ ◘ ◘

اثنـان

ودعــته ودموعهــا عالقة برموشها ونظرة جزعة ملتاعة كأن ســكين الفراق تمزق فيها الحب الأبدي . ثم نسيته إلى الأبد عندما أدارت إليه ظهرها منسلة بهدوء من باب الشقة .

كانــت لديها عادة أن يكون وجودها كله هنا ، فإذا مشت خطوة للأمام أصبح وجودها كله هناك . لم تكن دموعها كذب، ولا نسيانها كذلك . بعد أسبوع كلمته من الإسكندرية .

قالت بدفء :

– يــا حبيبــي . لا تدري كم أشتاق إليك . أفكر فيك . بالأمس فقط رأيــتك معي في المنام وكان حلما جميلا . (كانت صادقة في أنها رأته في المنام ، لكنها كانت تكذب بشأن الشوق) .

ارتجفــت السماعة بيده وهو يلصقها إلى أذنه بشدة لكي لا تفوته نبرة :

– أيـــن أنت ؟ ليتك تعرفين أي فراغ حل بعد سفرك . إنني أحبك . أحـــبك . (ربما لم يشعر بحبه الذي يتحدث عنه . كان الأمر مجرد اعتـــياد يفضل هو أن يسميه حبا وتفضل هي أن تقول إنه علاقة . كان منهكا من الحياة بدلا من الاستمتاع بها مثل كل الذين لم يحققوا شـــيئا يذكـــر ، لكنه كان تواقا إلى حبها، وإلى حياة عارمة بانفعاله بوجوده)

جاء صوتها يرن :

– قل لي ماذا تفعل ؟ كيف تعيش يومك ؟ احك لي كل شيء .

– مـــا من جديد . نفس الحياة . أستيقظ صباحا وأتجه إلى العمل . أعـــود . الآن بعـــد رحيلك أطبخ بطاطس ولحما وهو كل ما أحسن طبخه . أتجول في الشقة وحدي . وفي المساء أستأجر شريط فيديو مـــن الأفلام العربية القديمة أتفرج عليه . (كان يدرك في هذه السن أن المشـــكلة ليست في أطراف خارجية ولا في إقامة علاقة حب أو حتى صداقة ، وأن المشكلة قابعة دائما داخل النفس ، وأن عليه إذا أحـــس الضياع الذي يقود خطاه إلى المقاهي ألا يتجه إلى الآخرين لكن إلى نفسه ليرى فيها من أين ينبثق الضياع وأين ينتهي)

قالت :

– لا تنس أن تسقي النباتات في البلكونة مرة كل ثلاثة أيام .

قال :

– لا أنسى . أسقيها وأسقى معها كومة ملابسي التي تراكمت منقوعة في الماء والصابون . منذ سفرك وأنا أبدل الماء في الطست كل يوم دون أن أجـــرؤ على غسلها . (كان التأجيل عادة أصيلة فيه . وكل ما فعله فعله متأخرا ، كان يصل إلى عمله متأخرا ، وإذا دُعي إلى حفلة ذهب متأخرا ، وحينما يستفزه ذلك كان يذهب مبكرا أكثر مما ينبغـــي . لكنه لم يفعل شيئا أبدا في وقته ، وكان قراره الارتباط بها مثل كل القرارات الأخرى .. متأخرا)

قالت :

– الجـــو في الإسكندرية بارد هذه الأيام لكني أتمشى كل مساء على الكورنيش . (فكر أن يسألها هل تتجولين بمفردك أم مع عزت ؟ لكنه تفادى ذلك) أمي بخير . لكني ندمت على سفري . (كان بصوتها ندم صادق ، لكنه ليس ندما على فراقه . الأرجح أن ذلك لأن بحثها عـــن عمل في إذاعة الإسكندرية لا يكلل بالنجاح رغم وعود عزت الكثيرة لها) . والحق أن الخجل يعذبني لأنني أحيا بلا عمل . أحس أننـــي عالـــة عليك. لكن كما ترى لا توجد فرصة عمل في القاهرة وأنت أعباؤك كثيرة .

قال لها بصوت أراده صادقا :

– كُفي عن التفكير بهذه الطريقة . أنت لم تكوني عالة عليّ أبدا . لقد أســعدت حياتي ووهبتني أملا فهل يقال عن ذلك عالة ؟ (كان في

واقـــع الأمـــر مستنزفا من الناحية المالية ، ولكن ليس للدرجة التي تجعله يستريح لانفصالها عنه)

اختفى صوتها برهة ثم عاد منصاعا كأنما لأنه ليس ثمة مكان آخر يتجه إليه الآن .

قالت :

- أنا أحبك . سأعثر على عمل في أي مكان .

قال لها :

- أنا أيضا أحبك . لقد وجدنا بعضنا البعض بصعوبة ، فلا تفرطي في حبنا . واعلمي أن كل حب مختلف ، وما من حب يشبه الآخر ، كل حب يشق طريقه بشكل خاص به . (لم يكن يعي وهو يقول ذلك أنه يحاول أن يجد تبريرا لفتور العلاقة) أنا أحبك أنت تعلمين ذلك. ولا أستطيع أن أحيا من دونك . (كان يكذب في ذلك . كان يعلم أنه يســتطيع الحياة من دونها ، لكن الحياة معها كانت أهون من الوحدة الكئيبة)

قالت :

- أنا أيضا أحبك . (لم ترد إلى ذهنه في هذه اللحظة العبارة التي قالــتها له يومـــا " الحب كلمة اخترعها الذين لا يريدون أن يدفعوا مقـــابل الحب . هناك مجرد علاقات جيدة أو علاقات سيئة ") احك

لي بالتفصيل ما الذي تفعله يوميا .. احك لي من فضلك . أنا مشتاقة لسماع صوتك .. قل أي شيء .. أي شيء . فقط تكلم .

قال لها :

– زارتـــنا صفاء أول أمس وقالت إن مجدي أرسل خطابا يؤكد فيه أنـــه لـــم ينســـني وأنه يفتش لي عن عقد عمل في الكويت رغم أن الفرصـــة تتضـــاءل . (كـــان ثمة شعور لديه بأن مشكلته كلها هى عجـــزه عن شراء شقة في حي نظيف وتأثيثها كما يليق . كان يعتقد أن المرأة تهوى في أغلب حالاتها وسائل الراحة . لكنه لم يكن يعي أنـــه إلى حد ما على استعداد للتضحية بعلاقته بها إذا واتته فرصة وحـــده . وكانت بدورها تحس – ولا تصارحه – أن تعلقه بها قائم ولكن ليس بتصميم إلى النهاية).

جاءه صوتها :

– لا تقلـــق ســـيأتيك عقـــد العمل بإذن الله . (كانت تدرك أن تلك المشـــكلة ليست كل ما يسوقها إلى الإسكندرية والالتقاء هناك بعزت بحـــثا عن عمل . ثمة شيء آخر أيضا، ربما شعورها الذي يطفو ثقـــيلا أنها لا تحس بالطمأنينة معه ، لأنه في أغلب الأحوال نهب لوساوس وظنون صغيرة تسعى كالظلال تلتهم شعوره بمتعة الوجود. مع ذلك فإنها لم تتمكن أبدا من تفسير ما يشدها إليه بقوة ، ولا أصل

مشـــاعرها المتضـــاربة التي تتأرجح بحرية متضاربة منجذبة إلى بعضها في مجال واحد) .

قال :

- ســنكون معــا ولن نفترق أبدا .. إذا واتتنا الفرصة . ولن أدعك تسافرين إلى الإسكندرية أبدا . (كان يظن أن بوسعه تنظيم حياته ، بــل كان يثق في ذلك . لكنه لم يدرك أنه يحيا في وهم ، وأن شيئا مما ينشده لن يتحقق ، لأن أعوامه قد عبرت من جانبه دون أن ينتبه إليها)

انتهت المكالمة . وانقطعت أجراسها لمدة أسبوعين ، كان خلالهما ينقض على سماعة التليفون بلهفة عند أي رنين آملا أنه صوتها .

نــام وصحا بعد منتصف الليل على صوت بعيد لباب يفتح فظن أنهــا رجعــت ، رمى الغطاء عنه ووثب من السرير بقفزة واحدة ، ومشـــى يتخبط نحو باب الشقة ، فلم يصادف سوى فراغ معتم عند الــباب الموصد . تراجع نحو الصالة وأشعل الضوء وجلس هامدا . في هذه اللحظة دق جرس الهاتف فخرجت روحه مع الرنين ملهوفة إليها :

- أين أنت ؟

وشوشـــة خافــتة جعلــته يــتوتر . ثم صوتها منخفضا يبكي مغلقا كالأنبوبة على عذابه الخاص كأنها لم تعد تأمل في شيء .

علا صوته بشحنة القلق :

– ماذا بك ؟

– لا شـــيء . لكـــن أحدا لا يفهمني وكل ما أقوم به يراه الآخرون خطأ. أنا نفسي لم أعد أعلم ما الذي أريده .

أطلق حرارة قلبه كلها في صوته :

– عــودي . مــا من شيء يمكن أن تفعليه هناك . (أحس أن شيئا مفاجئا طرأ على علاقتها بعزت ، صدمها وأجرى دمعها) .

اختفى رنين أجراسها لثلاثة أسابيع ، وأخذ في الأيام الأخيرة يهبط بعد السابعة مساء – موعد وصول قطار الإسكندرية – ويتسكع أمام بــاب العمــارة فــترة ، مرسلا بصره إلى نهاية الشارع . لكنها لم تظهر. كأنها لم تكن موجودة أبدا .

ودق الجــرس مــرة بعد أن أطبق اليأس على مشاعره وأحاطها بسطح سميك دفاعا عن النفس . تواثب صوتها الآن بفرح وتصميم :

– إني قادمة .

راحت مشاعره تنقر السطح الخارجي السميك لتنفذ منه :

– صحيح ؟ .. فعلا ؟

– نعــم . أيا كان ما سيحدث أنا قادمة . سأهاتفك غدا لأخبرك بأني اشتريت بطاقة العودة بالقطار .

أضافت بنبرة من تؤثره بسر خاص :

- كنت أبحث عن عمل فلا تكن غاضبا مني . (لم تكن تبحث عن عمل فحسب ، هو وهي يعلمان أن الحقيقة غير ذلك) .

نطق شوقه الكامن :

- أنا في انتظارك . لا تتصوري مدى فرحي .

هتفت بعزم :

- سـألقي كل شيء وراء ظهري . سنعيش معا في الشقة الصغيرة مع والدتك إلى أن تتبدل ظروفنا . ربما يأتيك عقد العمل ، ربما أجد عملا في القاهرة . من يدري ؟ أنا أحبك . انتظر مكالمتي غدا .

أية حياة بعثتها في روحه كلها ؟

اخـتفى صـوتها شهرا . ثم اتصلت بنبرة قطة يائسة تحت جدار بارد:

- الأرجـح أنني لن أستطيع الرجوع إلى القاهرة . اشتريت بطاقة السفر فبكت أمي ، وناشدتني البقاء إلى جوارها . سأكتب لك خطابا مطولا قد يصلك خلال أسبوع .

قال :

- طيـب . (أدرك أنها تضيع منه ، وأنه لم يملكها أبدا) سأنتظر رسـالتك . (فـي هذه اللحظة كان يفكر في ابنة عمه المطلقة قائلا لنفسه إن عليه أن يتخذ خطوة لتغيير حياته نحو الاستقرار) .

قالت بصوت مذنب بين التساؤل والوداع :

- سلام ؟

- سلام .

اتســعت شــروخ فــي روحه . وعزى نفسه بأنه طالما عاش في وحدة، وعليه الآن أن يتماسك في مواجهة ذلك .

الآن هــي جالســة على شاطئ في الإسكندرية ، تندهش عيناها الواســعتان الضاحكتان لكل شيء ببهجة رقيقة . نسيته تماما . هي الآن غارقــة حتى أذنيها في فرحتها بعزت . تتجول على الكورنيش ذراعهــا مشبوكة بذراعه ، يستقبلان معا رذاذ مطر خفيف ، فترفع هــي رأســها لأعلى كعادتها مغمضة عينيها وقد قلبت راحتيها إلى الســماء . (لــم يكن ذلك صحيحا . على العكس كان أغلب وقتها ينقضــي داخل بيتها هناك ، وشعور خانق يمسك بها بأنه لا معنى لشــيء ، أي شــيء في العالم ، وأن عليها أن تغير حياتها بصورة حاســمة . مع ذلك من يدري ؟ ربما كانت تجد وقتا للتجول تحت المطر والجلوس ساعات على الشاطئ ؟) .

عــندما قاربــت الساعة الثالثة فجراً اتكأ بمرفقيه على حافة نافذة الصالة يتأمل الشوارع الساكنة ويدخن . أحس ببرودة الفجر فجلس على فوتيه وترك ظهره يسقط على مسنده كشيء تهدم. ارتخت كفه فــوق فخذه بسيجارة مشتعلة ، وخامره شعور بأنه عاجز عن رفع السيجارة إلى ما بين شفتيه . كان ضوء اللمبة يبهت في نور الصبح

الذي يغشى المكان . كان مستعدا أن يغفر لها ولنفسه كل شيء على أن تعود .

واجهـته الآن عيـناها الواســعتان المرتبكتان ، وكاد أن يشعر بأنفاســها تلفح وجهه . عذبته الرغبة في أن يفهم – ما الذي تعنيه بالضبط – هذه النظرة الرقيقة الشاردة ؟

◘ ◘ ◘

نقطة عابرة

امتلأت المقاعد في صالة المسرح العريق . ووقف البعض في الممـــرات مـــتململاً يفتش بعين يائسة عن كرسي شاغر بمعجزة في حفلة تُحجز مقاعدها ببطاقات محددة الأرقام قبلها بزمن .

تألقــت الصالة متوهجة تحت نور المَصابيح وسرى في جوها طنيـــن لغـــط مـــرتفع. اتجهت نظرات الجالسين إلى ستار المنصة المنســـدل من القطيفة القرمزية الداكنة ، وعجوز فاحم السواد برأس أشيب يقود المتأخرين مهرولين إلى كراسيهم بين الصفوف.

لا يُوزع برنامج الأغاني في هذه الحفلة . إنه مفاجأة كل مرة . أنت تعلم فحسب أنها ساعة بالحياة وما فيها ، تهبُ السلطانة خلالها المتيمين بصوتها لحظات تنزع الروح من البدن وتعلو بها بعيدا . في حفلاتها كان بعضهم يرتجف باكيا من الانفعال ، آخرون يثبون من مقاعدهم طربا وفرحا من نشوة عارمة ، غيرهم يسند ذقنه إلى قبضة يده ويتنهد سارحا .

وهذا أنا هناك ، أجلس في المقعد الثالث من الصف السابع ناحية الممـــر . نعم . هل رأيتني ؟ . بجوار ذلك الرجل البدين يتقلقل في كرسيه ينشد أفضل وضعية للجلوس، بالقرب من شابة تناهز الثلاثين تـــتطلع إلى مرآة صغيرة أخفتها في يدها . عن يميني شخص قلق ، يتلفـــت إلـــى الـــوراء كل لحظة ويجيل عينيه في الصفوف الخلفية يستوثق من أن الآخرين منفعلون مثله ، تكلمه سيدة وقور ولا يصغي إلـــيها . الآن هـــل لمحتني ؟ أصارحك بأن ظروفي لم تكن تبيح لي الحصول على بطاقة في تلك الحفلة لكنها هبطت على بالمصادفة إذ هاجمت أزمة ربو زوج عمتي . كان ضابطا كبيرا في الجيش ، ولم ينجـــب ، فاعتبرنـــي فـــي محل ولده لأنني كنت أظل واقفا – عند زيارتـــه لـــنا – خافض الرأس لا أجلس أبدا إلا بعد أن يستريح هو على مقعده فيمتدحني : أنت شاب محترم . هكذا بدأت علاقتنا . لهذا حصلت على البطاقة ، وها أنا أرسل بصري إلى المنصة منتظرا أن تخفت أنوار الصالة وتشرق كوكب الغناء .

أخذ ستار القطيفة القرمزية بشرائط القصب المذهبة اللامعة ينفتح علـــى مهـــل. تســـمرت العيون إلى المنصة وساد الصالة صمت الترقب وسكونه . تعاقب الموسيقيون من الجهة اليمنى. دخل عازف القانون الأصلع البدين ، والعواد بنظارته السوداء ، ثم عازف الناي بملامح وجهه الدقيقة المهذبة ، وعازف التشيللو الذي قعد واحتضن

آلــته الضــخمة بصمت . تتابع عازفو الكمان ، ومن بعدهم قارعو الدفوف . قاطع ظهورهم تصفيق من هنا وهناك ، ثم اصطف طاقم كــورس مــن نســاء ورجال . أشار الرجل القلق عن يميني، كأنما يحدث نفسه، لمقعد عوَّاد شهير ظل مكانه شاغرا بعد رحيله .

دقــيقة وهلت بعدها كوكب الغناء في فستان وردي فاتح غير محــبوك يهــبط إلــى قدميها ، طُرزت فتحة صدره بحبات ألماس صــغيرة تتلألأ . شعرها الأسود ملموم للخلف ككعكة مدورة ، وقرط مــن اللؤلــؤ يتدلى من أذنيها . تهادت مبتسمة وهي ترفع ذراعيها لأعلى قليلا . نهض الحضور كله واقفا للصوت الذي حلق عبر كل الأزمــنة . ارتفعت الأيادي تخلخل الهواء بتصفيق مدو، والسلطانة تسير إلى حيث مسقط الأضواء الكاشفة . هناك أحنت رأسها قليلا . وتجــدد التصــفيق كالرعد حتى شبع الجمهور من علامات الامتنان علــى وجههــا فعاد إلى الكراسي وهو يتطلع إليها بشغف مسحور . الآن بوســع كــل منهم أن يملأ عينيه بالأسطورة ، وإن كانت بعيدة المنال . ظلت تختبر صبر محبيها بصمتها برهة ، وحين ساد سكون مطبق في الجو اهتز طرف منديلها المعصور في قبضة يدها اليسرى إشارة للموسيقيين بالبدء .

يــا الله ! بــدأ التخت يدندن فاندلعت الأكف بالتصفيق ولمعت العــيون . انجرف الجميع مع نمنمات إيقاع الرق والكمان الشجي .

رحت من مقعدي في خضم البهجة أحدج في وجهها أحاول أن أتبين قسماته . تلك مرة لن تتكرر ، فإذا لم أبصر عينيها الغائمتين الآن ، فلن أشاهدهما أبدا .

انخـــرط التشيللو والقانون والناي فى العزف، وتمايلت السلطانة قليلا ، ثم أطلقت آهة محرقة جاوبها الجمهور بآهات . ارتدت للخلف بعنقها ورفعت رأسها بكبريائها المعهودة . غابت نظرتها في الفراغ تحت قبة المسرح . باعدت ما بين ذراعيها مفرودتين في الهواء ، وصمتت كأنها تبتهل وتستحضر سرها الخاص من أعلى . ثم اندلع صـــوتها قويا يقبض على كل نسمة هواء في الجو . أنشدت : " أنا قلبي معك .. مهما جرى .. قلبي معك " أنشدت من مختلف طبقات صـــوتها الـــذي لا يخطـــئ . تندفع إلى الأمام بصدرها في لحظات الـــذروة ، وتـــرتد ثانية تهز رأسها بخفة تحت ألق الأضواء ببسمة اعـــتزاز . تقـــف الصـــالة كلها محمومة وأكفها تلتهب ، بينما يعم الصمت بين العازفين كأنهم تحجروا في مقاعدهم من ألف عام.

في تلك الأثناء كانت كاميرات التسجيل تتنقل بين المنصة ووجوه بعـــض الجالســـين ونشـــوة الغيـــبوبة على ملامحهم . كنت سعيدا ومأخوذا، لكن سيطرة الصوت والنغم التي لا تقاوم كانت تبعث في نفســـي قلقـــا خفـــيفا مـــن ســـطوة تحلق وحدها بلا نهاية . استعاد

الحاضـــرون الســلطانة مرة واثنتين وعشرين مرة بالصفير الملتاع والتصفيق والتأوه ، فأغدقت عليهم نعمها مغردة بأريحية وكرم .

* * *

هــذا أنا هناك ، أجلس في المقعد الثالث ناحية الممر . ولكنك لن تتعرف إلى فقد انقضى على تلك الحفلة أربعون عاما ، ولم يبق من الفتـــي النحــيف ابن العشرين ذي النظرة المستقيمة الطاهرة سوى كهل بدين مصاب بتمدد في الرئتين يلهث وهو يصعد الدرج . ولم يبق من الحفلة المبهجة سوى البطاقة القديمة صفراء خفيفة كالرماد وذاك التســجيل الأبـيض والأسود الذي كانت قنوات التلفزيون تبثه أحيانا بعد برامجها المسائية.

أجلس وحدي في فسحة الشقة . زوجتي تغط في نومها . أمامي علـــى المنضدة صحن به قطعة جبن بيضاء صغيرة وربع رغيف . أفــتح الــتلفزيون وأتنقل بين القنوات . يفاجئني ذلك التسجيل القديم كأنـــه صـــورة تـــترقرق تحـــت سطح الزمن . يدق قلبي بسرعة ، وتـــندفع الدمـــاء إلى بدني ، وأحس أني مشحون بالرغبة في القيام بأعمال جليلة ، متأهب لأشياء لا أدري ما هي . أتابع الحفلة وأبحث عن صورتي. لم تتوقف كاميرات التسجيل عند وجهي . أفتش بعيني عن الصف السابع ، أحصي الصفوف وهي تمر وأجده ، وحين تبدو

رؤوس الجالسين من أعلى نقاطا صغيرة سوداء وبيضاء أشير لنقطة صغيرة تعبر بينها وأقول لنفسي : هذا أنا.

بعـد أن كنـت أنام بعمق ، صرت أستيقظ هكذا ما بين الثالثة والـرابعة فجرا . أظل قاعدا على سريري في العتمة والسكون وقد شـبكت يدي أمامي على البطانية التي تغطى ساقيّ . أتنفس بهدوء لكـي لا أقلـق زوجتي . لا أفكر في شيء معين . تتراءى لي في الظلام صالة المسرح متوهجة كالشمعة ، وعيون الجالسين تلمع وهم يتبادلون ابتسامات الحنان وضغطات الأيادي الخفيفة . هل اختفى كل ذلك أم أن الصالة مازالت تحيا في العمق تحت سطح عالم آخر ؟ . لاحقتني صورة التسجيل ، فكنت أذرع فسحة الشقة الصامتة الباردة وحدي . أنظر إلى ساعة الحائط ليلا . أتمهل قليلا عند النافذة على يميني حيث لا يتسرب أي صوت أو ضوء . أتسمع رجع الهواء بين الأشـجار العاريـة بـوق تنفخ فيه مئات الأصوات بنفس واحد من الصالة القديمة .

الـيوم ارتديـت ملابسي ، وتعطرت . خرجت وأخذت أسير من دون هدف إلى أن وجدتني أمام مبنى المسرح القديم في شارع عماد الديـن . توقفت ، ورحتُ من على الرصيف أتأمل المبنى المهمل . تراجعت للخلف خطوتين . رفعت عيني إلى يافطة الإعلان الضخمة المعلقة . تهرأ ورقها من التراب والمطر وتلوت أطرافه في الهواء .

قطعت ممرا مستطيلا يفضي إلى مدخل المسرح . توقفت أمام الباب المكسو بجلد بهت لونه الأحمر . دفعته فانفتح على مصراعيه وخرّ مـــن أعـــلاه تراب خفيف . دخلت إلى الصالة التي سكنتها رائحة الغـــبار . سرت محاذرا في الممر بين الصفوف . غاصتْ قدمي في حفر تحت البساط المفرود المنسول . رأيت المصابيح محطمة مغبرة فـــي أماكـــنها ، والأبواب الجانبية منحنية إلى الأمام بعد أن تخلعت مفاصلها ، جلود الكراسي مشققة . تطلعت إلى المنصة كان الستار مضموما على الجانبين انطفأت فيه لمعة شرائط القصب.

وهـــذا أنـــا أجلـــس في المقعد الثالث ، أحاول أن أرهف السمع لصوت الذين ينفخون في بوق واحد بين الأشجار العارية .

لحظات وظهرت السلطانة من الجهة اليمنى . كانت تدب منهكة وخشبة المسرح تصر تحت وطأة قدميها . خطت بتثاقل إلى أن بلغت وســـط المنصـــة . تجمدت مكاني . انعطفتْ نحوي ومدت رقبتها . رأيـــت عينـــيها المفتوحتيـــن واضحتين تحدقان فيّ بعتاب . رفعتْ ذراعـــيها لأعلى بجهد كبير . مكثت لحظة صامتة وبصرها مرسل إلـــى قبة المسرح ثم فتحت فمها دون صوت . قرأتُ حركة شفتيها همســـا ضعيفا: " قلبي معك .. مهما جرى " . مالت بعنقها نحوي . حدجتْ في وحركت شفتيها بفم خال من الأسنان : " قلبي معك " .

أردت أن أقـــف لأغـــادر المكـــان علـــى وجه السرعة . هممت بالـــنهوض ، لكنـــي لـــم أشعر بساقي ، كأن فراغا قد طوى نصفي السفلي كله .

◘ ◘ ◘

موج أبيض

رجعــتُ إلى البيت ووجدتها في الصالة جالسة على الأريكة وقد ضــمت ســاقيها تحتها. كانت تدعك رأس قطتها الصغير وتلاغيها بغمغمــة حانية. حين انتبهتْ إلى أني أقف بمنتصف الصالة رفعتْ إلــى عينيــن ثملتين بسعادة عميقة . وصوبت قطتها البيضاء نحوي نظــرتها الفاتــرة التي تنظر بها عادة إلى كل ما حولها . شيء ما استوقفني . ربما لأني كنت حين أرجع إلى البيت أجدها مشغولة في العادة بطبخ أو كيّ ملابس ، وقلما طالعت نظرةً كتلك مشبعة برضا أسبابه مجهولة المصدر . خامرني شك دون سبب أو هدف واضح .

ســألتها إن كــان أحــد زارنا ؟ فنفت بهزة سريعة من رأسها ثم نهضــت وهــي تطــوى لمعة سعادتها في غور عينيها ، وآبت إلى حالتها الاعتيادية . لا يحق لي أن أعتبر سعادتها ذنباً ولو كان باعثها غير مفهوم .

بعـــد يومين كنت بغرفة النوم أتقلب على جنبي في قيلولة الحر حيـــن شـــاهدتها من بين جفوني جالسة على المقعد المنخفض أمام المرآة البيضاوية ، ظهرها لي مستغرقة في تأمل نفسها . بم يمكنني اتهامهـــا فـــي جلستها هذه ؟ بأن لها عالما آخر يخصها مخفياً بعيداً عني ؟

في الأيام اللاحقة صرت أفتح باب الشقة أدلف إلى داخلها بهدوء بـــالغ . ثم خطر لي ما هو أسوأ : فرجعت من عملي يوم الخميس مـــبكرا عـــن موعدي ، وفتحت باب الشقة بحرص. كانت واقفة في البـــيجاما وســـماعة التليفون على أذنها ووهج انفعال يلفح وجنتيها . ذكرني وجهها المشع بأوائل علاقتنا . لم ترتبك تحت وطأة نظرتي ، وواصـــلت حديثها بتماسك . جذبت السماعة من يدها بقوة وألصقتها إلى أذني. وصلني صوت رجل يطلق ضحكات قصيرة بين كلماته . وضـــعتُ السماعة . أحنتْ رأسها قليلا ثم كسرتْ عينها على فتور وهي تنظر إلى كأني تجاوزت حدودي .

جلستْ على مقعد واستسلمتْ لخواطر مجهولة وعيناها غائبتان في نقطة غير محددة من جسم القطة التي رقدت ببطن منتفخة . لم تعد تشبه المرأة التي عرفتها من قبل . مكثت متجمدا في مكاني لحظات ألاحـــق مـــا يتهدم في داخلي حتى لم يبق بين ضلوعي سوى فراغ أسود. لم أعد أنا أيضا أشبه نفسي . حط عليّ شعور ثقيل كئيب.

ماءت القطة وانزلقت بنعومة من فوق الأريكة إلى أرض الصالة. عـندما لامست الأرض قوست ظهرها لأسفل ومطت بدنها ثم مشت بتثاقل . قاربتني وهي في طريقها إلى المطبخ وحكتْ جنبها في ثنية سـروالي فلـم أشعر إلا وطرف قدمي يغوص في بطنها . طارت قلـيلا في الهواء واستقرتْ بعيدا تموء بصوت حاد مسددة إلى نظرة متربصة من عينين ضيقتين.

لـم أقل لها ولا كلمة . ولم أقم بشيء . كنت فقط بحاجة للانفراد بنفسي ، فخرجت أتسكع بقية اليوم في الشوارع . دخلتُ إحدى دور العـرض وجلستُ هناك لا أسمع ولا أرى ، وأسلمتني . العتمة التي تخللها ضوء الشاشة المتقطع لشعور منطفئ .

كان لقاؤنا الأول مصادفة . كنت أقول لها فيما بعد " يوم الثلاثاء " فتضحك باستنكار " الأحد .. لا أنساه " . كانت السماء غائمة بسحب متداخلة بلون الحليب وأنا عائد من عملي بالمطرية . وتحت كوبري الـنعام بدأت السماء تجهش بأمطارها دون توقف ، وخلت الشوارع مـن المارة إلا من عدد قليل كان يقطع الطريق جريا ويحمى رأسه بـورق الصحف . خيل إلى أنه لم يعد من أحد سواي داخل سيارتي الصغيرة وحدي أتلقى الهواء الرطب المنبعث بقوة من فوق الأسفلت المغسـول . بعـد الكوبري بقليل رأيتها واقفة بمفردها تحت سقف

محطة أتوبيس في فستان أبيض منقط بزهور بنفسجية كبيرة . بدت لي في هذا الجو الغائم كأنها هبطت من زمن آخر.

دون أي تفكــير وجــدتُ قدمي تضغط على فرامل السيارة بقوة لأتوقف أمامها بالضبط. فتحت لها الباب وأنا أميل ناحيتها . خرجت مــن تحت سقف المحطة بابتسامة وجلست قربي ببساطة كما يهبط الضوء من أعلى دونما حذر أو شك .

صرنا نلتقي كل يوم تقريبا عند نفس المحطة ، وأطلقنا عليها فيما بينــنا اســم " محطة المطر " . لم تفارقها هذه البساطة ونحن ننهي إجــراءات الــزواج ، ونستبدل بسقف المحطة سقف الشقة . ظلت جميلة أول كل صباح وهي تصحو ، وظهرا حين تعد الطعام ، وفي المســاء . وكان جمالها يتلون كالفصول . في الليل فاضت حبا حتى أننــي قلــت لها ذات مرة : " أنت تشبهين العدالة " . ضحكت بنقاء وســألتني : " وكيف هذا ؟ ألستُ مثل كل النساء ؟ " . قلت : " كلا. أنت لا تشبهين أحدا ، لأنني في كل مرة أكون معك أشعر أن العدالة تنصفني وتعوضني عن كل المظالم الصغيرة" . ضحكت واحتضنتني فغــاب وجهي في شعرها . قالت : " هيا نأكل شيئا " . رحت أقطع البســطرمة فــي المطبخ لنحمرها والقطة تدور بين أقدامنا . سألتُ نفســي : " لماذا تهب علينا السعادة متفرقة دون أن تتجمع في معنى واحد كبير؟ "

تخبطتُ طويلا في الشوارع ذلك المساء ورجعتُ مرهقا . تخيرتُ لنومي حجرة أخرى . ولزمت هي غرفتنا فلم تخرج منها . أفقت بعد وقت على قطتين صغيرتين تلجان حجرتي من فرجة بابها الموارب. سارتا نحو سريري دون أدنى صوت . أول ما ورد على ذهني وأنا أرفـع رأسـي أن القطة الأم وضعت قططها . دفعت الغطاء بقدمي ونهضـت . قبضت على القطتين من رقبتيهما وأنزلتهما وراء باب الحجرة. بعد لحظات رأيت خمس قطط أخرى يمشين نحو فراشي . قمت وأمسكت اثنتين منهن وتركتهما خارج الحجرة ، رجعت ، وقبل أن أمسك بالبقية ، رأيت الاثنتين ترجعان نحوي بهدوء ومن خلفهما موجة وراء أخرى من القطط البيضاء . وقفتُ في منتصف الحجرة أغـترف مـن القطـط بـيدي وأرميها إلى الخارج ، فيرتد الموج الصامت الأبيض طافياً من جديد . لم أعد قادرا على زحزحة قدمي وسط قطع اللحم النيئة التي ملأت الحجرة لخوفي من المواء الحاد . تشـبثتُ بفكرة أنها مجرد قطط لكي لا يشلني الرعب، وأخذتُ فترة أمسـك بهـا وألقـيها للخارج حتى تسرب ضوء باهت إلى المكان فتلاشـت العتمة الداخلية من سطح الجدران . تلفت حولي وروحي ترجع إلى وأدركت أنني قطعت الشوط الأكبر إذ لم يبق في الحجرة سـوى قطتيـن، رفعتهما في الهواء بكفي وألقيت بهما وراء الباب وأغلقـته بـيد مرتجفة وحشرتُ منشفة كبيرة تحت عقبه . لابد أن

القطــة وضــعت عــددا ضــخما. رحت أنفضُ شعر القطط العالق بأطراف أصابعي ، لكن كل شعرة أنفضها كانت تنقلب على الأرض إلــى قطــة تجــري . قلبت يدي أتفحصهما فلمحت تحت أظافري شــعيرات كلمــا نترتُ بعضها تساقطت قططا تملأ الحجرة وتزحف تحت السرير وتختفي كأن تحته نفقا يفضي إلى جهة أُخرى .

قررتُ أن أغادر الحجرة . فتحت الباب وقصدت الصالة. رأيت القطــة الأم مستلقية وحدها على الأريكة ، تلعق خيطا رفيعا من دم تخــثر علــى بطنها، ثم توقفت ونبضت أطراف شواربها. وومض نحــوي شــعاع أحمــر من حدقتيها الضيقتين . رأيتُ نظرتي وهي تنكســر علــى سطح عينيها الحمراوين فطاش شيء في إدراكي . هرولتُ أفتح باب الشقة لأستعين بحارس العمارة وامرأته في تنظيف الشــقة. لكنــي فوجئت بالهدوء الذي يخيم على العمارة وأن أبواب الشــقق كلهــا مفــتوحة على مصراعيها . لم أجد الحارس مكانه . خرجتُ إلى الشارع فرأيت القطط الصغار تسده ، والناس يهربون ، ومــا مــن ثغــرة لقدم . عدوتُ مع من عدا . كان الرجال يجرون بالبــيجامات والنســوة بقمصــان نــوم داخلية شبه عاريات . كانوا يــندفعون إلــى الأمام إلى أن تجمعوا في ساحة قريبة وهناك راحوا يغسلون أياديهم من شعر القطط تحت صنابير ماء عمومية ، ووقف البعض منهم تحت الماء عاريا كما خلقته أمه يتطهر دون جدوى .

شاع في الساحة أخذ ورد وضوضاء وخوف ، وهدأت نفسي قليلا حين أدركتُ أنني لم أكن وحدي فيما حدث ، فلم يعد الأمر مخيفا . لكن إحساسي بلزوجة لحم القطط الغض وشعراتها اللاصقة ببدني لم يفارقنـــي . فجأة أطل علينا رجل عارٍ اعتلى قطع أثاث تكدست في ركـــن، ولوح بيده وهو يصيح أنه اكتشف دواء للجميع . ورفع الكل أعيـــنهم بلهفة إليه ، فقال:" لابد للإنسان أن يمرض فيعرق ثم يرشح عرقه كله من بدنه " .

كان يتكلم وخيوط العرق تنسال على جسمه العريان . أضاف : " ولابد أن يصب العرق ليصبح بحيرة صغيرة تحت قدميه شرط ألا يلمس أحد الماء المتجمع ولا حتى الشخص نفسه " . حدقنا بأبصارنا إلى بقعة ماء تتراكم وتتسع تحت قدميه . هتف : " انظروا " . كان بدنـــه يســـتعيد هيئته النظيفة أمام أعيننا وجلده يلمع بمظهر البشرة الصحية من جديد . آمن الجميع بما قاله . لكن أمواج القطط البيضاء كانـــت تطفو كالزبد على الأسفلت منذرة بإغراق كل شيء . داهمنا شـــعور ثقـــيل بأننا في سباق مع الزمن . وفي هذه اللحظة تدافعت نحونـــا جمـــوع فاغـــرة أفواهها من حلوق الشوارع ومن العمارات الشـــاهقة ، تعدو قابضة على أيدي أطفالها . ولم يكن أحد مهتماً بما تـــركه خلفـــه سوى رجل تسمر يشد إلى الخلف امرأة بدينة نصف عارية وهو يلطم صدغه صارخا : " تعب عمري كله هناك " .

فكرتُ بسرعة ولم أجد وسيلة لكي أعرق وأشفى أفضل من الدخول لأحـــد البيوت المهجورة بحثا عن قرص أسبرين منسي . دخلت بيتا وصفقت بابه خلفي ، لكن طرقات مقارع هائلة كادت تخلع الباب قبل أن ألحـــق بيدي المرتعشة بابتلاع قرص الأسبرين . تواريتُ مرتعدا وراء ســتارة النافذة ، فأبصرت من فرجتها كائنات لم أتعرف إليها تزاحمت على الباب بأقدام كأقدام البشر وعيون ضيقة وأبدان يهيش مـــنها شـــعر القطـــط . وقفت تموء مواء جماعيا مرعبا وهي تهز بأياديها هراوات ضخمة تقرع بها الباب ثائرة . وعلى مبعدة حامت فرق أخرى تتحرك بالهرّاوات قرب البيوت لنهب ما فيها .

تلاحقت أنفاسي مكروبة خلف الستارة ، وحط سقف فولاذي على حركتـــي فتحجرتُ مكاني . تلفتُ حولي بأمل أخير ، فشاهدت غير بعيد عنى امرأة تقف في الظل ، شجعتني بنظرة تأييد حار أن أدفع المقـــاعد خلف الباب لكي لا ينهار تحت وطأة الضربات الساحقة . هبطـــت بـــنظرى إلى أسفل فرأيت قرب قدميها قطة صغيرة بيضاء تتطلع إلى .

◘ ◘ ◘

نبضة

عاد الطبيب برقبته إلى الخلف وأطلق زفرة مستريح :

– نعم . قلب صغير .

اندلعت النبضة الضئيلة على الشاشة تصارع ما حولها من ظلام . لطمت بشدة المحيط الأسود ، فترنح الظلام وانحسر ، وما لبث أن استجمع قوته وأطبق حانقا على النبضة فاعتصرها حتى أوشكت أن تختفي . وفجأة جدد القلب الصغير ضرباته بعنف .

نهـض الطبيـب يتحسس بأصابعه سطح المكتب بحثا عن علبة سجائره :

– منذ أسبوعين لم نكن نرى سوى بقعة سوداء . الآن ظهر لنا قلب. صغير حقا.. لكن قلب.

مـال حمدي إلى الأمام في وقفته خلف الطبيب واعتمد ببطن كفه اليسـرى على حافة مقعده . أحنى رأسه إلى مستوى كتفي الطبيب وثبـت بصره على الخربشة الدقيقة المتموجة . أيعقل أن هذه البقعة الأقل حجما من علبة ثقاب قلب إنساني ؟

– أهذا قلب ؟

– ليس قلبا بالضبط . إنه كيس للقلب يضخ الدم فيتفرع القلب بداخله ويتفتح . هذا أول التكوين.

تسمر حمدي مكانه يحدق في ابنته قلبا صغيرا جدا بحجم نقطة عمـــياء في الكون ، تخوض وحدها كفاحا ضاريا ولا تعي أنه واقف علـــى مقـــربة منها . اعتدل في وقفته متململا ، واستنجدت نظرته بعينـــي نوال التي مالت على جنبها فوق سرير الفحص ، واشرأبت برقبتها تحدق في صورة الجنين، كانت روحها مخطوفة من عينيها إلى حافة عالم جديد مجهول.

ضحك الدكتور أنور لحمدي :

– سأعطيك هذه الصورة للذكرى .

ضـــغط على زر فخرجت من أسفل الجهاز ورقة صغيرة مطبوعة علـــيها خربشـــة الخطوط المتداخلة . أمسك حمدي الصورة يسأل نفســـه: كيف لقلب لم يكن أن ينهض هكذا من العدم ؟ ويحز لنفسه كياناً من وشائج اللحم والدم معلنا عن وجوده ؟ قلب من هذا ؟

نهضت نوال غائمة الوجه . خرجا من العيادة . هبطا على السلم الضـــيق بســـقفه المنخفض ، تقدمت نوال وكف حمدي مفرودة في الهواء خلف ظهرها .

كانـــت العاشـــرة مساء وهما يقطعان الزقاق الصغير على مهل . سارا معا يدها في يده بين أكوام القاذورات المرتفعة على الجانبين . كانت ثملة لا تكاد تصدق أنها حامل . اتكأت إلى ذراعه ثم استدارت تواجهه وغمغمت :

– أتعرف ؟ نفسي في سمك .. أي سمك .. مقلي .

اتسعت حدقتا عينيها تتطلع إليه كأنها تستفسر منه عن شيء آخر تماما لا علاقة له بالسمك .

أجابتها نظرته مرتجفة :

– سنشتري السمك .. كل السمك الموجود في كل المحلات .

قالت له :

– كنـــت أود لو أسكن مكانا كهذا . الناس هنا يعيشون معا . تنطلق النكتة من دكان في أول الزقاق فيضحكون لها من شرفة آخر بيت .

أجابها :

– قد يعجبك هذا في البداية لكنك سرعان ما تتعبين .

انعطفـــا يميـــنا وخـــرجا إلــــي ناصية الشارع الكبير بضجيجه وأضوائه. تمهل يلف ذراعه حول خصرها وقال :

– فلنستقل تاكسي .

رفعت رأسها إليه وغمره حنان من صوتها :

– لماذا ؟ هاهي محطة الأتوبيس قريبة .

قطعــا عــدة أمتار نحو المحطة ، وهناك وقفا تحت المظلة صامتين يــتطلعان إلى الجهة التي تقبل منها الأتوبيسات . تعلقت بذراعه ثم خرجت كلماتها ببطء :

– ربما لم تكن الظروف مناسبة ؟

– أية ظروف ؟

تساءل مستنكرا بصوت أجش استغربه . قال لنفسه " ستعتقد الآن من نبرة صوتي أنني لست سعيدا لأن الأمر لم يكن في الحسبان " .

– أقصد ظروفنا .. المالية . ربما كان ينبغي تأجيل الحمل لوقت آخر ؟

لزم الصمت . وضعت يدها على بطنها ، فأكد عليها :

– نستقل تاكسي ؟

– لا . لا داعي .

وصل الأتوبيس فارغا تقريبا . قال لها وهما يرتقيان سلمه:

– لا تعلقي هذه المسألة بأحوالنا . هذا وقتها .

أرسلت بصرها إلى الشارع عبر الزجاج المرتج لنافذة الأتوبيس :

– لــم أكن أتوقع الحمل . حدث ذلك في الليلة التي بتنا فيها عند أمي . لم تكن الحبوب معي .. وظننت ..

لزم الصمت .

منذ أن تحطمت كتفه وهو بلا عمل يدور حول نفسه كالتائه. حدث ذلـك بينما كان في طريقه من المحل إلى ١٤ شارع يوسف عباس يـنقل شطائر " البيتزا " الساخنة في صندوق مغلق . كان عمله كله يعـتمد علـى انطلاقه بالموتوسيكل كالسهم ، ورجوعه كالريح عبر شـوارع المديـنة. وكان في أعماقه يعشق مخاطر العمل ، السرعة القصـوى ، والهـواء حين يضرب وجهه ، الزوغان الحاد بمقدمة الموتوسـيكل مـتفاديا شخصا يظهر على الطريق فجأة ، وخطفات الضوضاء المتلاحقة تهب على جانبي الخوذة على رأسه . لهذا سمي " طـيارا " . وبفضـل طـيرانه حافظ على راتبه ونظرات التقدير والإعجاب في أعين عمال المحل .

فـي تلـك المـرة ، انزلق بالموتوسيكل يسرق الطريق من بين السيارات . اجتاز إشارتي المرور قبل ملاهي " وندر لاند"، واندفع إلى شارع جانبي . دار مع الصينية لينعطف إلى الشارع الرئيسي ، وفجـأة برزت أمامه من يمين التقاطع سيارة " هونداى " صغيرة . ارتجفـت يـداه فوق المقبض ، وانحرف يتجنبها ، فارتفعت العجلة الأمامـية للموتوسيكل عالياً تلف أمام عينيه في الهواء ، وسقط على ظهره .

تحطمـت كـتفه ولم يعد صالحا للعمل طيارا . خلال الشهور الأولى باع التلفزيون ، ثم تصرفت نوال في السلسلة والقرط الذهبي

وأثــناء بحثه عن عمل بدأ رحلة القروض الصغيرة ، وانتهى بمبيت عند الأقارب اتخذ في البداية شكل زيارة بالمصادفة ، وحين تكررت المصادفة أدرك الجميع ما وراءها ، فتضاءلت الحفاوة وبان الفتور .

هــبطا من الأتوبيس . انتبه إلى أنها لم تعد تذكر السمك . سارا نحو البيت . قال لها :

– المحلات الآن مغلقة . غدا نشتري السمك .

– غدا . الوقت متأخر الآن .

تعلقت بذراعه وضغطت عليها . دلفا إلى مدخل البيت . المدخل معــتم بحاجة إلى مصباح منذ زمن ولا أحد يشتريه . أخرج سلسلة مفاتــيح من جيبه ودفع بالمفتاح الكبير إلى ثقب الباب. أيا كان فإن لهما مسكنا . عبرت إلى الصالة ووضعت يدها على بطنها . أمسك أنفاسه وتعلقت روحه بحركة يدها . البطن التي لم تكن أكثر من لحم دافــئ أصــبحت حديقــة ستزهر عما قريب . كانت الصالة باردة وفارغة من الأثاث تقريبا .

سألها تحت ضوء باهت :

– أعمل لك شاي ؟

– لا ..

– أنا سأعمله ؟

– لا ..

اندفعــت إلـــى دورة المياه . تناهي إليه وهو في الصالة صوتها يخــرج مــن حلقهــا بكل ما في معدتها . عادت بعد لحظات منهكة شاحبة الوجه . قالت :

– افــرش لـــي مـــلاءة على السرير . ركبتاي ترتعدان لا أعرف لماذا.

هــرول إلـــى غرفة النوم ، وحين انتهى من فرش الملاءة وجدها تقف إلى جواره. ألقت بجسدها على السرير .

– أتريدين حبة أسبرين ؟ أو كوبا من اللبن ؟

ابتسمت بوهن :

– لا ..

غــادر الغرفة إلى شرفة الصالة . وقف وحده هناك في عتمة الشــرفة. كان مشحونا بالصورة التي أعطاها له الطبيب . أخرجها مــن جيبه . أمعن النظر فيها : خربشة خطوط مرهفة تنبض . قال قلب صغير .. لكنه قلب .. مجرد قلب بلا فم ، ولا وجه ، لا شيء مع ذلك ينبض بحرارة ويضرب محيط الظلام .

ارتجــف مـــن الانفعال وهو واقف في الشرفة يطل على الخلاء والعتمة ، وبدا له في الصمت أن الكون واسع ومجهول يرتجف.

عاد إلى غرفة النوم .

كانت مستلقية ، بشحوب ، على السرير . وضع كفها بين كفيه :

- سنشتري غدا كل السمك .

- نعم . غدا . الوقت الآن تأخر .

◘ ◘ ◘

* المؤلف

* **أحمد الخميسي** مواليد القاهرة ١٩٤٨ .

- صـــدرت له أول مجموعـــة قصصية مشتركة عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربي بعنوان : " **الأحلام ، الطيور الكرنفال** ".

من كتبه :

- " **كـــان بكاؤك في الحلم مريرا** " مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية دار المستقبل العربي بالقاهرة عام ١٩٨٥ .
- " **قصـــص وقصائد للأطفال** " مترجمة عن الروسية– اتحاد الكتاب العرب دمشق عام ١٩٩٨ .
- " **نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق** " تأليف وترجمة دار الثقافة ١٩٨٩ القاهرة .
- " **أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج** ". ترجمة ١٩٩١ مكتبة مدبولي القاهرة .
- " **موســكو تعــرف الدموع** " مجموعة دراسات ومقالات، كتاب الأهالي القاهرة ١٩٩١.
- " **حرب الشيشان** " رحلة إلى الجبال، دار المحروسة القاهرة ١٩٩٦ .
- " **نساء الكرملين** " القاهرة مكتبة مدبولي ١٩٩٧ .
- " **رائحة الخبز** " مجموعة قصص مترجمة عن هيئة قصور الثقافة ديسمبر ١٩٩٩ .

الفهرس

وقت آخر	٧
قطعة ليل	٢٢
غيمة	٢٧
تصادف أننى	٣٥
إغفاءة	٤١
نتف الثلج	٤٥
قرب الفجر	٥٣
السند	٦١
اثنان	٦٩
نقطة عابرة	٧٩
موج أبيض	٨٧
نبضة	٩٥